كامل كيلانى

قصص من الف ليلة

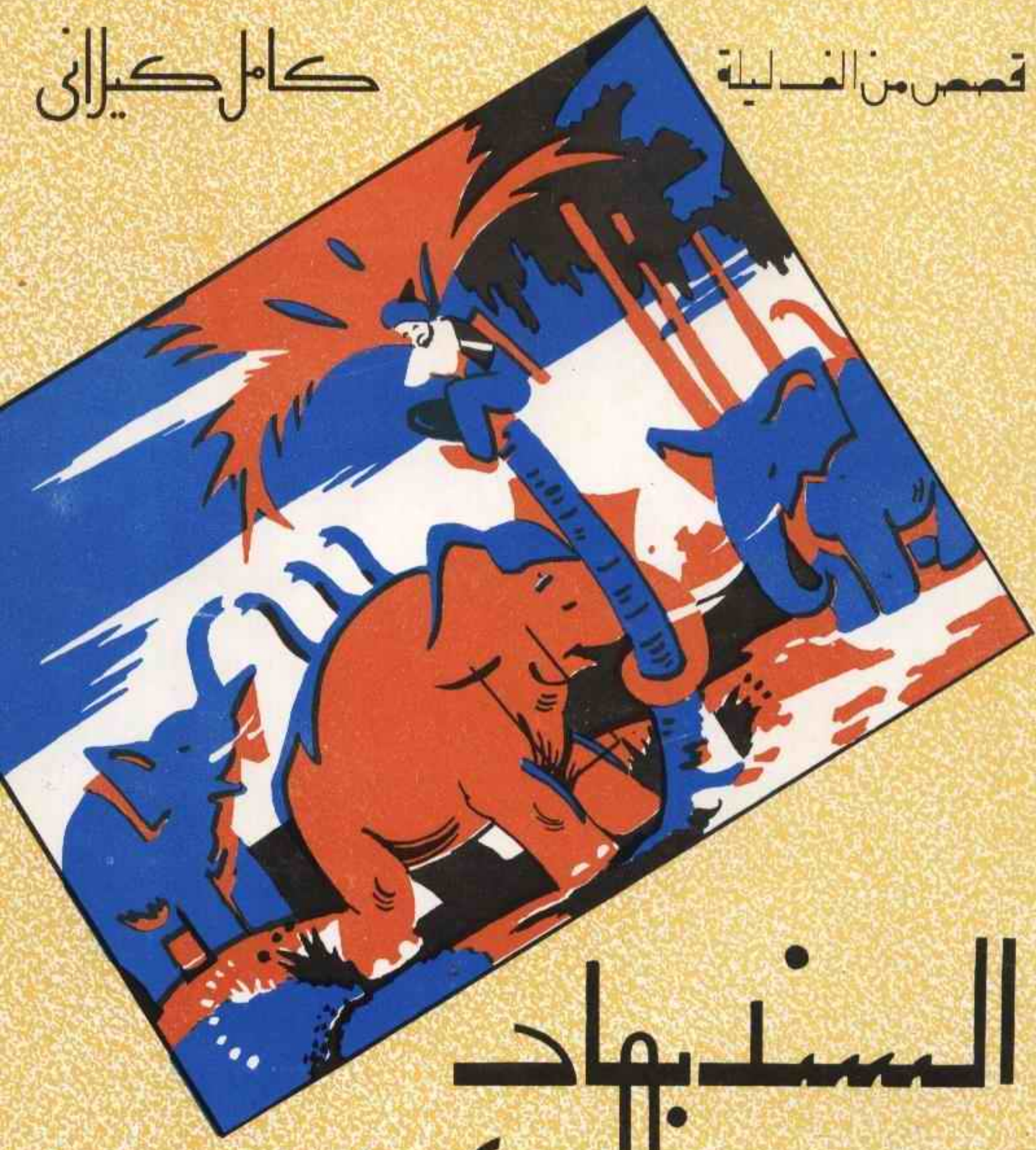

السندباد البحرى

DUDARAB

دار المعارف

كامل كيلانى

قصص من ألف ليلة

السندباد البحرى

الطبعة السادسة والعشرون

دار المعارف

الإهـــداء[1]

وَلَدِى مُصْطَفَى :

قَرَأْتُ عَلَيْكَ هَـذِهِ الْقِصَّةَ وَأَنْتَ تَسْتَقْبِلُ الْعَامَ السَّابِعَ مِنْ عُمْرِكَ فَأَعْجَبَتْكَ ، وَرُحْتَ تَقُصُّهَا عَلَى أَقْرَانِكَ الصِّغَارِ لِيُشَارِكُوكَ فِى الْإِعْجَابِ بِهَا . فَأَعَدْتَ إِلَى ذَاكِرَتِى عَهْدَ طُفُولَتِى الْمَحْبُوبَ ، أَيَّامَ كُنْتُ أُصْغِى إِلَى أَمْثَالِ هَـذِهِ الْقِصَّةِ بِشَوْقٍ وَشَغَفٍ شَدِيدَيْنِ .

وَذَكَرْتُ — إِلَى هَذَا — حَاجَةَ الْأَطْفَالِ إِلَى كُتُبٍ سَهْلَةٍ تُحَبِّبُ إِلَيْهِمُ الْقِرَاءَةَ وَتَدْفَعُهُمْ إِلَى الِاسْتِزَادَةِ مِنْهَا ، فَنَشَرْتُ لَهُمْ هَذِهِ الْقِصَّةَ الْمُمْتِعَةَ ، لِيَقْرَأَهَا كِبَارُهُمْ وَيَقُصَّهَا الْآبَاءُ عَلَى صِغَارِهِمْ .

*
* *

إِلَيْكَ إِذَنْ وَإِلَى أَتْرَابِكَ أُهْدِى هَذِهِ الْقِصَّةَ وَمَا يَتْلُوهَا مِنْ قِصَصٍ . !

كامل كيلانى

ديسمبر سنة ١٩٢٨

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

مقدمة

كِتَابُ « أَلْفِ لَيْلَةٍ وَلَيْلَةٍ » مِنْ أَنْفَسِ اُلذَّخَائِرِ اُلْأَدَبِيَّةِ، وَلَهُ أَثَرٌ كَبِيرٌ فِي تَنْمِيَةِ خَيَالِ اُلْكَثِيرِينَ مِنْ مُفَكِّرِي اُلشَّرْقِ وَاُلْغَرْبِ، وَلَكِنَّهُ — عَلَى نَفَاسَتِهِ — لَمْ يَلْقَ شَيْئًا مِمَّا هُوَ جَدِيرٌ بِهِ مِنَ اُلْعِنَايَةِ فِي اُلشَّرْقِ، وَلَعَلَّ إِهْمَالَهُ عِنْدَنَا رَاجِعٌ إِلَى أَسْبَابٍ ثَلَاثَةٍ وَهِيَ :

(١) رَكَاكَةُ اُلْأُسْلُوبِ فِي أَكْثَرِ قِصَصِهِ .

(٢) ضَعْفُ اُلْخَيَالِ وَسُخْفُهُ فِي اُلْقَلِيلِ مِنْهَا .

(٣) عَدَمُ تَحْلِيَتِهِ بِالصُّوَرِ اُلَّتِي تُجَلِّي أَغْرَاضَهُ وَمَعَانِيَهُ كَمَا يَفْعَلُ اُلْفِرِنْجَةُ .

☆
☆ ☆

وَلَمَّا كَانَ أَطْفَالُنَا فِي حَاجَةٍ إِلَى كُتُبٍ عَرَبِيَّةٍ تُحَبِّبُ إِلَيْهِمِ اُلْمُطَالَعَةَ وَتَجْعَلُهُمْ يُقْبِلُونَ عَلَيْهَا بِشَغَفٍ ، اُنْتَهَزْتُ فُرْصَةَ مَيْلِهِمِ اُلْغَرِيزِيِّ هَذَا إِلَى سَمَاعِ اُلْأَقَاصِيصِ ، فَشَرَعْتُ فِي نَشْرِ طَائِفَةٍ صَالِحَةٍ مِنَ اُلْقَصَصِ اُلْمُخْتَارِ مِنْ « أَلْفِ لَيْلَةٍ وَلَيْلَةٍ » وَغَيْرِهَا ، وَقَدْ عُنِيتُ بِاخْتِيَارِ الصُّوَرِ عِنَايَتِي بِاُخْتِيَارِ اُلْقِصَصِ ، بَاذِلاً كُلَّ

مَا فِي وُسْعِي فِي ٱنْتِقَاءِ أَسْهَلِ ٱلْأَسَالِيبِ ٱلْعَرَبِيَّةِ ٱلَّتِي يَفْهَمُهَا ٱلْمُبْتَدِئُ بِنَفْسِهِ ، أَوْ مَعَ قَلِيلٍ مِنَ الشَّرْحِ ٱلَّذِي نَكِلُهُ إِلَى حَضَرَاتِ ٱلْمُعَلِّمِينَ أَوِ ٱلْآبَاءِ .

✡
✡ ✡

وَلَعَلَّ خَيْرَ مَا يَقُومُ بِهِ ٱلْمُدَرِّسُ لِلطَّالِبِ ٱلْمُبْتَدِئِ — لِتَقْوِيَتِهِ فِي ٱلْإِنْشَاءِ — أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ أَمْثَالِ هَذِهِ القِصَّةِ المُشَوِّقَةِ ، وَسِيلَةً إِلَى ٱلْمُحَادَثَاتِ بِاللُّغَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ ، ثُمَّ يَخْتِمَهَا بِتَكْلِيفِ الطَّالِبِ صَوْغَ مَا فَهِمَهُ فِي عِبَارَةٍ عَرَبِيَّةٍ وَاضِحَةٍ .

✡
✡ ✡

هَذِهِ الطَّرِيقَةُ هِيَ أَوَّلُ مَرَاتِبِ ٱلْإِنْشَاءِ ، وَفِي هَذِهِ ٱلْقِصَصِ عِبَرٌ يُمْكِنُ ٱلْمُعَلِّمَ أَنْ يَسْتَخْلِصَهَا بِسُهُولَةٍ لِتَلَامِيذِهِ ، وَلَيْسَتْ حَاجَةُ ٱلْبَنَاتِ إِلَى هَذَا النَّوْعِ مِنَ ٱلْقِصَصِ بِأَقَلَّ مِنْ حَاجَةِ ٱلْبَنِينَ ، وَفَّقَنَا اللهُ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَأَلْهَمَنَا ٱلرُّشْدَ وَالسَّدَادَ .

ديسمبر سنة ١٩٢٨

كامل كيلانى

تمهيد
الهِنْدَبادُ الحَمَّالُ

كَانَ بِمَدِينَةِ « بَغْدَادَ » — فِي زَمَنِ ٱلْخَلِيفَةِ « هَارونَ الرَّشِيدِ » — حَمَّالٌ فَقِيرٌ ، ٱسْمُهُ « ٱلْهِنْدِبَادُ » .

فَفِي ذَاتِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الصَّيْفِ ، جَلَسَ « ٱلْهِنْدِبَادُ » تَحْتَ قَصْرٍ عَالٍ تُحِيطُ بِهِ حَدِيقَةٌ جَمِيلَةٌ لِيَسْتَرِيحَ مِنْ عَنَاءِ السَّيْرِ ، بَعْدَ أَنْ أَنْهَكَهُ ٱلتَّعَبُ وَٱلْحَرُّ الشَّدِيدُ ، وَوَضَعَ — إِلَى جَانِبِهِ — حِمْلَهُ الثَّقِيلَ .

فَسَرَى إِلَيْـــهِ مِنَ ٱلْحَدِيقَةِ نَسِيمٌ لَطِيفٌ حَمَلَ إِلَيْهِ رَائِحَةَ ٱلْأَزْهَارِ ٱلْعَطِرَةِ ، وَهَبَّتْ عَلَيْهِ — مِنْ نَاحِيَةِ ٱلْقَصْرِ — رَائِحَةُ الشِّوَاءِ ٱللَّذِيذِ ، وَٱلْأَطْعِمَةِ الشَّهِيَّةِ .

وَسَمِعَ « ٱلْهِنْدِبَادُ » الطُّيُورَ تُغَرِّدُ — عَلَى ٱخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا — فَوْقَ ٱلْأَشْجَارِ ، كَمَا سَمِعَ أَصْوَاتَ ٱلْغِنَاءِ وَأَنْغَامَ ٱلْمُوسِيقَى ٱلْمُطْرِبَةِ فِي ذَلِكَ ٱلْقَصْرِ ، فَخُيِّلَ إِلَيْهِ أَنَّ أَصْحَابَهُ فِي عُرْسٍ .

صَاحِبُ ٱلْقَصْرِ

وَذَهَبَ « ٱلْهِنْدِبَادُ » إِلَى أَحَـدِ ٱلْخَدَمِ فَرَآهُ لَابِساً أَبْهَى

ٱلْمَلَابِسِ وَأَحْسَنَهَا ، وَلَمَّا سَأَلَهُ عَنِ ٱسْمِ صَاحِبِ هَذَا ٱلْقَصْرِ ٱلْبَدِيعِ قَالَ لَهُ ٱلْخَادِمُ مَدْهُوشاً :

« كَيْفَ تَسْأَلُ هَذَا السُّؤَالَ ؟ أَفِي « بَغْدَادَ » كُلِّهَا مَنْ يَجْهَلُ « السِّنْدِبَادَ ٱلْبَحْرِيَّ » — صَاحِبَ هَذَا ٱلْقَصْرِ — الَّذِي مَلَأَتْ شُهْرَتُهُ ٱلْآفَاقَ، وَالَّذِي رَكِبَ ٱلْبِحَارَ، وَجَابَ ٱلْأَقْطَارَ وَرَأَى عَجَائِبَ الدُّنْيَا ؟ »

شَكْوَى الهندبادِ الحمَّالِ

ثُمَّ عَادَ ٱلْحَمَّالُ إِلَى مَكَانِهِ فَجَلَسَ يُفَكِّرُ فِي هَذَا النَّعِيمِ، وَكَانَ كَثِيراً مَا يَسْمَعُ النَّاسَ يَتَحَدَّثُونَ بِمَا نَالَهُ «السِّنْدِبَادُ» مِنْ ثَرْوَةٍ طَائِلَةٍ.

وَنَظَرَ « ٱلْهِنْدِبَادُ ٱلْحَمَّالُ » إِلَى جَمَالِ ٱلْحَدِيقَةِ وَفَخَامَةِ ٱلْقَصْرِ وَوَفْرَةِ مَا يَحْوِيهِ مِنْ غِنًى وَنِعْمَةٍ ، وَرَأَى مَا هُوَ فِيهِ مِنْ بُؤْسٍ وَشَقَاءٍ ، فَصَاحَ غَاضِباً :

« سُبْحَانَكَ رَبِّى تُغْنِي مَنْ تَشَاءُ ، وَتُفْقِرُ مَنْ تَشَاءُ ، وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ ، وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ، فَأَنَا أَتَحَمَّلُ ٱلْهُمُومَ وَٱلْآلَامَ ، وَأُقَاسِى ٱلْمَتَاعِبَ وَٱلْأَهْوَالَ لِلْحُصُولِ عَلَى قُوتِى وَقُوتِ عِيَالِى ، بَيْنَمَا يَنْعَمُ « السِّنْدِبَادُ » بِهَذَا ٱلْقَصْرِ ٱلْفَخْمِ وَمَا يَحْوِيهِ مِنْ ثَرْوَةٍ وَنَعِيمٍ ، دُونَ أَنْ يَتَكَبَّدَ أَىَّ عَنَاءٍ !

فَمَاذَا صَنَعَ « السِّنْدِبَادُ » حَتَّى ٱسْتَحَقَّ هَذِهِ النِّعْمَةَ ؟ وَمَاذَا فَعَلْتُ أَنَا حَتَّى كُتِبَ عَلَىَّ هَذَا الشَّقَاءُ ؟

أَأُصْبِحُ فِى تَعَبٍ دَائِمٍ أَعِيشُ شَقِيًّا وَقَدْ زَادَ حِمْلِى
وَغَيْرِى سَعِيدٌ — بِلاَ شِقْوَةٍ — وَمَا حَمَلَ الدَّهْرَ يَوْماً كَحِمْلِى ؟ »

☆
☆ ☆

وَبَيْنَمَا « ٱلْهِنْدِبَادُ » مُسْتَغْرِقٌ فِى هَذِهِ ٱلتَّأَمُّلَاتِ إِذْ خَرَجَ مِنَ ٱلْقَصْرِ خَادِمٌ يَدْعُوه إِلَى مُقَابَلَةِ سَيِّدِهِ ، فَخَشِىَ ٱلْحَمَّالُ عَاقِبَةَ ٱلْأَمْرِ ، وَأَدْرَكَ أَنَّ « السِّنْدِبَادَ » قَدْ سَمِعَ — بِلاَ شَكٍّ — كُلَّ مَا قَالَ ، فَٱعْتَذَرَ إِلَى ٱلْخَادِمِ مُحَاوِلاً أَنْ يُفْلِتَ مِنْ يَدِهِ ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلاً ، فَذَهَبَ مَعَهُ خَائِفاً يَتَوَقَّعُ الشَّرَّ .

فِى حَضْرَةِ السِّندبادِ

وَسَارَ ٱلْحَمَّالُ مَعَهُ حَتَّى بَلَغَ غُرْفَةً فَخْمَةً ، فِى وَسَطِهَا مَائِدَةٌ

حَوَتْ مَا لَذَّ مِنْ أَطْيَبِ ٱلْأَطْعِمَةِ وَٱلْأَشْرِبَةِ وَٱلْفاكِهَةِ وَالنُّقْلِ ، وَرَأَى جَمَاعَةً مِنْ سَرَاةِ ٱلْقَوْمِ ، كَمَا رَأَى فِي صَدْرِ ٱلْمَجْلِسِ رَجُلاً حَسَنَ الصُّورَةِ جَلِيلَ ٱلْقَـــدْرِ مَهِيبَ الطَّلْعَةِ وَقَدْ بَدَا فِي لِحْيَتِهِ ٱلشَّيْبُ ، فَعَرَفَ أَنَّهُ « السِّنْدِبَادُ » صَاحِبُ ٱلْقَصْرِ ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ — وَهُوَ مُنَكِّسٌ رَأْسَهُ مِنْ شِدَّةِ ٱلْخَجَلِ — فَهَشَّ إِلَيْهِ « السِّنْدِبَادُ » وَقَرَّبَهُ مِنْهُ حَتَّى أَذْهَبَ عَنْهُ خَوْفَهُ ، وَدَعَاهُ إِلَى الطَّعَامِ فَأَكَلَ حَتَّى شَبِعَ .

فَسَأَلَهُ « ٱلسِّنْدِبَادُ ٱلْبَحْرِيُّ » عَنِ ٱسْمِهِ وَصِنَاعَتِهِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : « أَعِدْ عَلَيَّ ٱلْآنَ مَا كُنْتَ تَقُولُهُ — مُنْذُ زَمَنٍ يَسِيرٍ — تَحْتَ ٱلْقَصْرِ ! »

* * *

هُنَالِكَ ٱرْتَبَكَ « الْهِنْـدِبَادُ » ٱلْحَمَّالُ وَبَدَتْ عَلَيْهِ دَلَائِلُ ٱلْحَيْرَةِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ :

« مَعْذِرَةً يَا سَيِّدِي ، فَقَدْ دَفَعَنِي مَا أُعَانِيهِ مِنَ ٱلْفَقْرِ ، وَمَا أُكَابِدُهُ مِنَ ٱلْمَتَاعِبِ ، إِلَى التَّفَوُّهِ بِمَا قُلْتُ ، فَتَجَاوَزْ عَنْ إِسَاءَتِي وَلَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا فَرَطَ مِنِّي ! »

فَقَالَ لَهُ « ٱلسِّنْدِبَادُ » :

« إِنِّي لَا أُرِيدُ أَنْ أُؤَاخِذَكَ بِشَيْءٍ مِمَّا قُلْتَ ، وَإِنَّمَا أَشْفَقْتُ عَلَيْكَ وَرَثَيْتُ لَكَ ، وَقَدْ صِرْتَ لِي — مُنْذُ ٱلْيَوْمِ — أَخًا وَصَدِيقًا ،

وَلَـكِنَّنِي أُرِيدُ أَنْ أُبَيِّنَ لَكَ حَقِيقَةً غَابَتْ عَنْكَ ، وَأُزِيلَ مَا عَلِقَ بِذِهْنِكَ مِنَ ٱلْوَهْمِ ، فَقَدْ ظَنَنْتَ أَنَّ هَذِهِ ٱلثَّرْوَةَ الطَّائِلَةَ قَدْ جَاءَتْنِي دُونَ مَشَقَّةٍ أَوْ عَنَاءٍ ، مَعَ أَنَّنِي لَمْ أَحْصُلْ عَلَيْهَا إِلاَّ بَعْدَ أَنْ قَاسَيْتُ مِنَ ٱلْمَصَاعِبِ وَلاَقَيْتُ مِنَ الْأَهْوَالِ مَا يَعْجِزُ عَنْهُ ٱلْوَصْفُ .

* * *

وَسَأَقُصُّ عَلَيْكَ مَا حَدَثَ لِي فِي أَسْفَارِي السَّبْعَةِ ، وَمَا تَعَرَّضْتُ لَهُ مِنَ ٱلْمَهَالِكِ وَٱلْمَخَاطِرِ ٱلَّتِي تَشِيبُ مِنْ هَوْلِهَا ٱلْوِلْدَانُ ، لِتُدْرِكَ بِنَفْسِكَ مِقْدَارَ مَا عَانَيْتُ مِنَ ٱلْمَتَاعِبِ حَتَّى وَصَلْتُ إِلَى هَـذِهِ السَّعَادَةِ ٱلَّتِي تَرَاهَا وتَعْجَبُ مِنْهَا .

أسئـــلة

أتينا بهذه الأسئلة لتكون نموذجا لحضرات المدرسين ينسجون على منواله فيما يلى :

(١) ما اسم الحمال ؟ (٢) فى أى بلد كان يقيم ؟
(٣) فى زمن أى خليفة ؟ (٤) ما اسم صاحب القصر ؟
(٥) ماذا قال الخادم حين سأله الحمال عن اسم صاحب القصر ؟
(٦) ماذا قال الحمال حين رأى فخامة القصر وجمال الحديقة ؟
(٧) ماذا رأى الحمال فى غرفة السندباد ؟
(٨) كيف سلم عليه الحمال ؟ (٩) كيف قابله السندباد ؟
(١٠) هل وصل السندباد الى هذه الثروة الطائلة بلا عناء ؟
(١١) من الذى ظن ذلك ؟ (١٢) ومن الذى بين هذا الخطأ ؟
(١٣) اكتب خلاصة وجيزة لهذه القصة .

على ظهر حوت

١ ــ السِّنْدِبَادُ بَعْدَ وَفَاةِ أبيهِ

كَانَ أَبِى مِنْ كِبَارِ تُجَّارِ « بَغْدَادَ »، فَلَمَّا مَاتَ تَرَكَ لِى ثَرْوَةً طَائِلَةً – وَكُنْتُ حِينَئِذٍ شَابًّا طَائِشًا – فَأَخَذْتُ أُنفِقُ عَلَى نَفْسِى وَعَلَى أَصْحَابِى – عَنْ سَعَةٍ – مِنْ هَذَا ٱلْمَالِ ٱلَّذِى لَمْ أَتَكَبَّدْ فِى جَمْعِهِ أَىَّ عَنَاءٍ ، وَظَلِلْتُ عَلَى ذَلِكَ مُدَّةً طَوِيلَةً مِنَ ٱلزَّمَنِ ، دُونَ أَنْ أَتَدَبَّرَ عَوَاقِبَ هَذَا ٱلإِسْرَافِ .

ثُمَّ ٱنْتَبَهْتُ مِنْ غَفْلَتِى – ذَاتَ يَوْمٍ – فَرَأَيْتُ مَالِى لَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلاَّ ٱلْقَلِيلُ ، وَعَلِمْتُ أَنَّنِى – إِذَا ظَلِلْتُ عَلَى هَذِهِ ٱلْحَالِ – ضَاعَ كُلُّ مَا أَمْلِكُ ، وَكَانَ عَاقِبَتِى ٱلإِفْلَاسُ وَٱلْخَرَابُ . وَرُبَّمَا ٱضْطُرِرْتُ إِلَى سُؤَالِ النَّاسِ . فَجَزِعْتُ مِنْ هَذِهِ ٱلْعَاقِبَةِ ٱلسَّيِّئَةِ ، وَقُلْتُ لِنَفْسِى : « إِنَّ ٱلْفَقْرَ – فِى آخِرِ أَيَّامِ ٱلإِنْسَانِ – وَٱحْتِمَالَ ذُلِّ السُّؤَالِ ، مِمَّا لاَ تَرْضَاهُ نَفْسُ ٱلْكَرِيمِ ، وَإِنَّ ٱلْكَسَلَ مِفْتَاحُ ٱلْفَقْرِ » وَذَكَرْتُ تِلْكَ ٱلْحِكْمَةَ الصَّادِقَةَ ٱلَّتِى يَقُولُهَا النَّاسُ :

« مَنْ لَمْ يَرْكَبِ ٱلأَهْوَالَ لَمْ يَنَلِ الرَّغَائِبَ »

فَعَزَمْتُ عَلَى السَّفَرِ ، وَبِعْتُ كُلَّ مَا بَقِيَ لَدَيَّ مِنْ مَتَاعٍ ، وَاشْتَرَيْتُ بِثَمَنِهِ بَضَائِعَ أَتَّجِرُ فِيهَا ، وَسَافَرْتُ – مَعَ جَمَاعَةٍ مِنَ التُّجَّارِ – مِنْ مَدِينَةِ « بَغْدَادَ » حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى مَدِينَةِ « اَلْبَصْرَةِ » حَيْثُ أَقْلَعَتْ بِنَا سَفِينَةٌ كَبِيرَةٌ ، وَسَارَتْ فِي طَرِيقِ اَلْخَلِيجِ اَلْفَارِسِيِّ .

٢ – دُوَارُ اَلْبَحْرِ

وَكَانَتْ هَذِهِ هِيَ أَوَّلَ رِحْلَةٍ لِي ، فَلَمْ أَكَدْ أَرْكَبُ اَلْبَحْرَ حَتَّى اَعْتَرَانِي دُوَارٌ أَفَقْتُ مِنْهُ بَعْدَ قَلِيلٍ مِنَ اَلزَّمَنِ ، ثُمَّ أَلِفْتُ هَوَاءَ اَلْبَحْرِ – بَعْدَ ذَلِكَ – وَعَادَتْ إِلَيَّ صِحَّتِي .

وَظَلَّتِ اَلسَّفِينَةُ سَائِرَةً بِنَا مِنْ جَزِيرَةٍ إِلَى جَزِيرَةٍ ، وَمِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ ، وَنَحْنُ نَبِيعُ وَنَشْتَرِي فِي كُلِّ مَكَانٍ حَلَلْنَا بِهِ .

٣ – عَلَى ظَهْرِ حُوتٍ

وَبَيْنَمَا نَحْنُ سَائِرُونَ فِي عُرْضِ اَلْبَحْرِ ، إِذْ لَاحَتْ لَنَا جَزِيرَةٌ صَغِيرَةٌ مُرْتَفِعَةٌ عَنْ سَطْحِ اَلْمَاءِ فَاقْتَرَبْنَا مِنْهَا ، وَنَزَلَ بِهَا بَعْضُ التُّجَّارِ – وَنَزَلْتُ مَعَهُمْ – وَبَقِينَا عَلَى هَذِهِ اَلْجَزِيرَةِ زَمَنًا وَنَحْنُ نَلْهُو وَنَلْعَبُ حَتَّى جَاءَ وَقْتُ اَلْغَدَاءِ ، فَأَتَيْنَا بِخُشُبٍ مِنَ اَلسَّفِينَةِ وَأَوْقَدْنَا بِهَا اَلنَّارَ لِنَطْبُخَ عَلَيْهَا طَعَامَنَا ، وَلَمْ نَكَدْ نُوقِدُ اَلنَّارَ

حَتَّى ٱهْتَزَّتْ بِنَا ٱلْجَزِيرَةُ ٱهْتِزَازاً عَنِيفاً ، فَصَرَخْنَا مِنَ ٱلْفَزَعِ وَالرُّعْبِ وَصَاحَ بِنَا رُبَّانُ السَّفِينَةِ :

« ٱنْجُوا بِأَنْفُسِكُمْ قَبْلَ أَنْ يَحُلَّ بِكُمُ ٱلْهَلَاكُ ! »

وَلَمْ يَكَدْ يُتِمُّ قَوْلَهُ حَتَّى غَاصَتِ ٱلْجَزِيرَةُ كُلُّهَا فِي ٱلْبَحْرِ مَرَّةً وَاحِدَةً ، فَأَسْرَعَ إِلَى السَّفِينَةِ مَنْ كَانَ قَرِيباً مِنْهَا فَنَجَا وَغَرِقَ ٱلْبَاقُونَ .

٤ — حَقِيقَةُ ٱلْجَزِيرَةِ

وَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ جَزِيرَةً — كَمَا حَسِبْنَا — بَلْ حُوتاً هَائِلاً مِنْ حِيتَانِ ٱلْبَحْرِ كَانَ نَائِماً عَلَى سَطْحِ ٱلْمَاءِ ، فَلَمَّا أَوْقَدْنَا عَلَيْهِ النَّارَ أَحَسَّ ٱلْحَرَارَةَ فَاسْتَيْقَظَ مِنْ نَوْمِهِ وَغَاصَ فِي ٱلْبَحْرِ ، فَنَجَا مَنْ نَجَا وَغَرِقَ مَنْ غَرِقَ .

٥ — كَيْفَ نَجَوْتُ مِنَ ٱلْغَرَقِ

أَمَّا أَنَا فَكُنْتُ بَعِيداً عَنِ السَّفِينَةِ فَلَمْ أَتَمَكَّنْ مِنَ ٱلْوُصُولِ إِلَيْهَا وَقَدْ كِدْتُ أَغْرَقُ لَوْ لَمْ أَتَعَلَّقْ بِلَوْحٍ مِنَ ٱلْخَشَبِ الَّذِي أَتَيْنَا بِهِ مِنَ السَّفِينَةِ لِلْوَقُودِ ، وَنَادَيْتُ مَنْ فِي السَّفِينَةِ بِأَعْلَى صَوْتِي فَلَمْ يَسْمَعْنِي أَحَدٌ لِشِدَّةِ مَا لَحِقَهُمْ مِنَ الرُّعْبِ .

وَرَأَيْتُ السَّفِينَةَ تَخْتَفِي عَنْ نَاظِرِي ، وَقَدْ أَصْبَحْتُ تَحْتَ رَحْمَةِ ٱلْأَمْوَاجِ ٱلْهَائِجَةِ ، وَالْغَرَقُ يُهَدِّدُنِي فِي كُلِّ لَحْظَةٍ .

وَلَمَّا أَظْلَمَ ٱللَّيْلُ أَيْقَنْتُ بِالْهَلاَكِ ، وَلَكِنَّنِي لَمْ أَيْئَسْ رَغْمَ مَا حَلَّ بِي مِنَ التَّعَبِ وَالْخَوْفِ ، وَبَقِيتُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ طُولَ اللَّيْلِ ، حَتَّى إِذَا أَصْبَحَ الصَّبَاحُ قَذَفَتْنِي الْأَمْوَاجُ إِلَى شَاطِئِ جَزِيرَةٍ عَالِيَةٍ فِيهَا أَشْجَارٌ مُطِلَّةٌ عَلَى الْبَحْرِ ، وَقَدْ وَجَدْتُ — لِحُسْنِ حَظِّي —

فَرْعَ شَجَرَةٍ مُتَدَلِّياً ، فَتَعَلَّقْتُ بِهِ وَتَمَكَّنْتُ بِذَلِكَ مِنَ الصُّعُودِ إِلَى الْجَزِيرَةِ بَعْدَ تَعَبٍ شَدِيدٍ .

وَلَمْ أَكَدْ أَصْعَدُ إِلَيْهَا حَتَّى ارْتَمَيْتُ عَلَى أَرْضِهَا — وَأَنَا مَنْهُوكُ الْقُوَى مِنْ شِدَّةِ مَا لَقِيتُ — وَبَقِيتُ نَائِماً طُولَ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ ، ثُمَّ أَفَقْتُ

مِنْ نَوْمِى فِى صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِى ، وَكَانَتْ قَدَمَاىَ قَدْ وَرِمَتَا وَلَـكِنَّنِى لَمْ أَعْبَأْ بِذَلِكَ ، فَمَشَيْتُ مُتَوَكِّئاً عَلَى عَصًا قَطَعْتُهَا مِنْ غُصْنِ شَجَرَةٍ ، وَسِرْتُ أَبْحَثُ عَنْ طَعَامٍ آكُلُهُ وَقَدْ كَادَ يُهْلِـكُنِى الْجُوعُ .

*
* *

عَلَى أَنَّنِى وَجَدْتُ فِى تِلْكَ الْجَزِيرَةِ كَثِيراً مِنَ الْبُقُولِ النَّاضِجَةِ وَرَأَيْتُ فِيهَا عَيْناً مِنَ الْمَاءِ الْعَذْبِ ، فَفَرِحْتُ بِذَلِكَ فَرَحًا شَدِيداً ، وَأَكَلْتُ حَتَّى شَبِعْتُ ، وَشَرِبْتُ حَتَّى ارْتَوَيْتُ !

٦ — خَدَمُ المَهَرَاجا

وَبَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ زَالَ مَا بِى مِنْ ضَعْفٍ ، وَعَادَ إِلَىَّ نَشَاطِى الْأَوَّلُ فَرُحْتُ أَمْشِى فِى الْجَزِيرَةِ ، وَبَيْنَمَا أَنَا كَذَلِكَ ، إِذْ لَاحَ لِى شَبَحٌ مِنْ بَعِيدٍ ، فَسِرْتُ إِلَيْهِ حَتَّى اقْتَرَبْتُ مِنْهُ فَإِذَا بِهِ فَرَسٌ تَرْعَى الْعُشْبَ — وَهِىَ مُقَيَّدَةٌ — وَسَمِعْتُ أَصْوَاتَ رِجَالٍ يَتَحَدَّثُونَ فِى سِرْدَابٍ تَحْتَ الْأَرْضِ فَدُهِشْتُ لِذَلِكَ ، وَإِنِّى لَفِى دَهْشَتِى إِذْ أَقْبَلَ عَلَىَّ رَجُلٌ لَا أَعْرِفُهُ ، فَسَأَلَنِى عَنْ سَبَبِ مَجِيئِى إِلَى هَذَا الْمَكَانِ ، فَأَخْبَرْتُهُ بِقِصَّتِى فَدُهِشَ لَهَا ، وَذَهَبَ بِى إِلَى السِّرْدَابِ الَّذِى خَرَجَ مِنْهُ ، فَرَأَيْتُ جَمَاعَةً يَنْتَظِرُونَهُ فِيهِ ، فَقَصَّ عَلَيْهِمْ قِصَّتِى ، وَقَدَّمُوا إِلَىَّ طَعَامًا وَشَرَابًا فَأَكَلْتُ وَشَرِبْتُ . ثُمَّ سَأَلْتُهُمْ عَنْ سَبَبِ مَجِيئِهِمْ إِلَى

هَذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ وَاخْتِفَائِهِمْ فِي هَذَا السِّرْدَابِ ، فَأَخْبَرُونِي أَنَّهُمْ خَدَمُ ٱلْمَلِكِ « ٱلْمهرَاجَا » صَاحِبِ هَذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ ، وَأَنَّهُ يُوفِدُهُمْ — فِي مِثْلِ

هَذَا ٱلْوَقْتِ مِنْ كُلِّ عَامٍ — وَمَعَهُمْ بَعْضُ أَفْرَاسِهِ لِتَرْعَى فِي هَذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ ، حَتَّى يَخْرُجَ إِلَيْهَا حِصَانُ ٱلْبَحْرِ فَتَحْمِلَ مِنْهُ ، فَإِذَا حَاوَلَ أَخْذَهَا مَعَهُ ، خَرَجُوا عَلَيْهِ مِنَ السِّرْدَابِ فَيَفِرُّ مِنْهُمْ هَارِبًا إِلَى ٱلْبَحْرِ ، ثُمَّ يَعُودُونَ بِهَا إِلَى بِلَادِهِمْ حَيْثُ تَلِدُ مُهْرًا أَصِيلًا عَدِيمَ ٱلْمِثَالِ !

٧ — حِصَانُ البَحْرِ

وَهُنَا سَمِعْنَا صُرَاخَ حِصَانِ ٱلْبَحْرِ ، فَنَظَرْنَا مِنْ ثُقْبِ السِّرْدَابِ ،

فَرَأَيْنَاهُ يُحَاوِلُ أخْذَ ٱلْفَرَسِ مَعَهُ بِقُوَّةٍ ، فَطَلَعَ عَلَيْهِ ٱلرِّجَالُ مِنَ السِّرْدَابِ ، فَلَمَّا رَآهُمْ وَلَّى هَارِباً إِلَى ٱلْبَحْرِ .

٨ – فِي حَضْرَةِ ٱلْمَهَرَاجَا

وَفِي ٱلْيَوْمِ التَّالِي أرْكَبُونِي مَعَهُمْ ، وَمَا زِلْنَا سَائِرِينَ حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى بِلَادِ ٱلْهِنْدِ حَيْثُ قَدَّمُونِي إِلَى مَلِكِهِمُ « ٱلْمَهَرَاجَا » فَسَأَلَنِي عَنْ قِصَّتِي فَأَخْبَرْتُهُ بِكُلِّ مَا حَدَثَ لِي ، فَدَهِشَ لِذَلِكَ أَشَدَّ دَهْشَةٍ ، وَسُرَّ بِي سُرُوراً عَظِيماً ، وَأكْرَمَنِي وَقَرَّبَنِي إِلَيْهِ .

٩ – عَلَى شَاطِئِ ٱلْبَحْرِ

وَكَانَ لِهَذَا ٱلْبَلَدِ مَرْفَأٌ تَرْسُو عَلَيْهِ السُّفُنُ التِّجَارِيَّةُ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ مُخْتَلَفِ بِلَادِ ٱلدُّنْيَا ، فَكُنْتُ أُكْثِرُ مِنَ التَّرَدُّدِ عَلَيْهِ مُسَائِلاً ٱلْوَافِدِينَ عَنْ أخْبَارِ « بَغْدَادَ » دُونَ أنْ أظْفَرَ مِنْهُمْ بِطَائِلٍ ، وَمَضَى عَلَى ذَلِكَ زَمَنٌ طَوِيلٌ ، فَمَلِلْتُ ٱلْغُرْبَةَ واشْتَاقَتْ نَفْسِي إِلَى رُؤْيَةِ وَطَنِي وَأهْلِي .

١٠ – عَجَائِبُ ٱلْهِنْدِ

وَكُنْتُ أخْرُجُ أحْيَاناً إِلَى بَعْضِ ٱلْجَزَائِرِ ٱلْقَرِيبَةِ فَأَرَى فِيهَا عَجَائِبَ وَغَرَائِبَ كَثِيرَةً .

وَمِنْ أَعْجَبِ مَا رَأَيْتُهُ سَمَكٌ كَبِيرٌ يَبْلُغُ طُولُهُ مِائَةَ ذِرَاعٍ إِلَى مِائَتَيْنِ ، وَلَهُ وَجْهٌ كَوَجْهِ الْبُومِ ، وَقَدْ نَفَرْتُ مِنْهُ كَمَا نَفَرَ مِنِّى ، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ ارْتَاعَ مِنْ رُؤْيَتِى كَمَا ارْتَعْتُ مِنْ رُؤْيَتِهِ .

١١ — اللِّقَاءُ بَعْدَ الْيَأْسِ

وَفِى ذَاتِ يَوْمٍ خَرَجْتُ كَعَادَتِى إِلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ ، فَرَأَيْتُ سَفِينَةً مُقْبِلَةً ، وَلَمَّا رَسَتْ عَلَى الشَّاطِئِ وَأَنْزَلَتْ مَا بِهَا مِنَ الْبَضَائِعِ رَأَيْتُ عَلَى بَعْضِ أَحْمَالِهَا اسْمَ «السِّنْدِبَادِ» فَلَمَّا أَنْعَمْتُ النَّظَرَ فِى رُبَّانِهَا عَرَفْتُهُ ، وَسَأَلْتُهُ عَنْ صَاحِبِ هَذِهِ الْأَحْمَالِ فَأَجَابَنِى مُتَأَثِّرًا حَزِينًا :

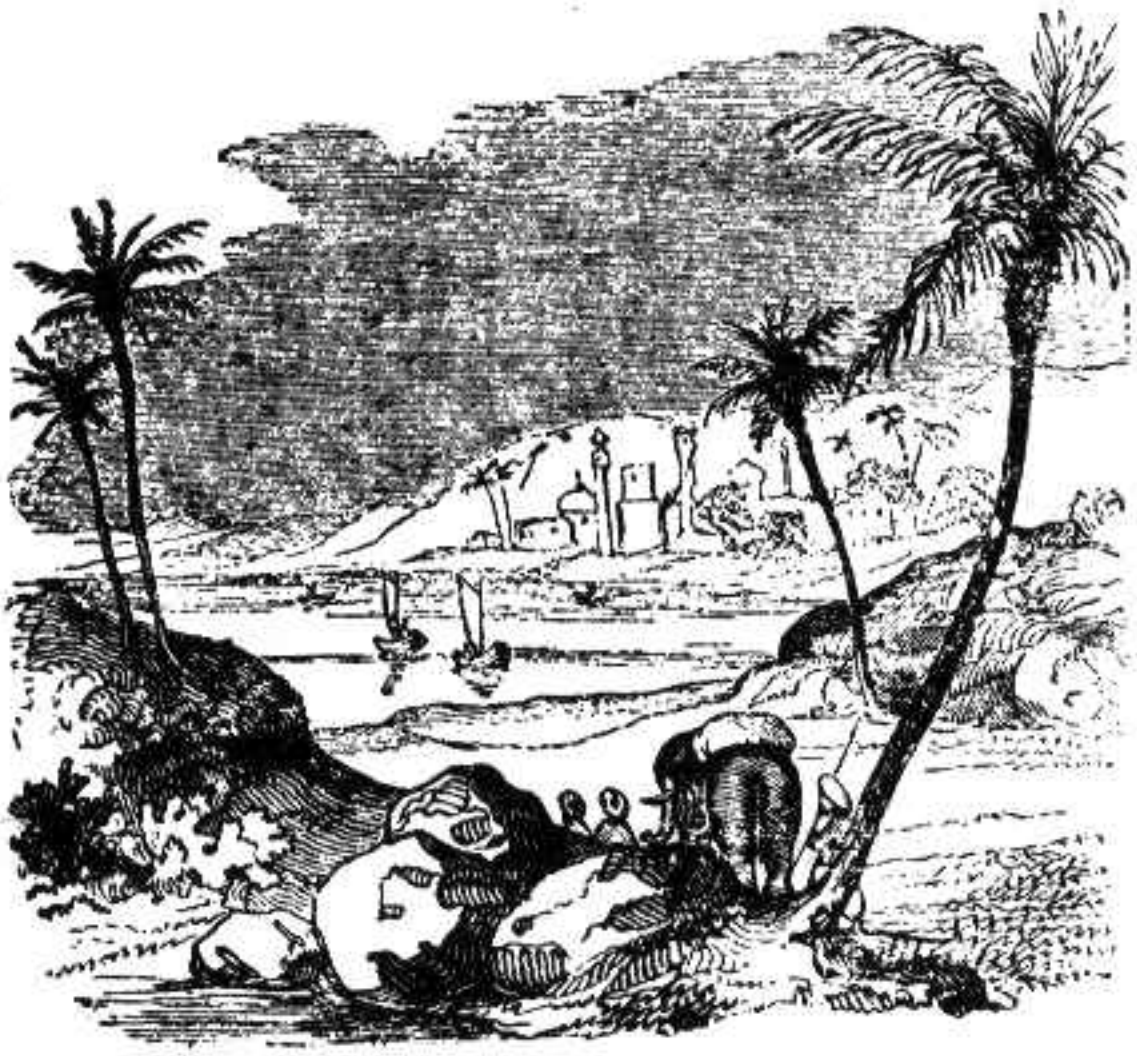

« وَا أَسَفَا عَلَيْهِ ! إِنَّهُ « السِّنْدِبَادُ » وَقَدْ غَرِقَ أَثْنَاءَ سَفَرِنَا ، وَكَانَ سَبَبَ غَرَقِهِ أَنَّهُ طَلَعَ — مَعَ بَعْضِ رِفَاقِهِ مِنَ التُّجَّارِ — عَلَى ظَهْرِ حُوتٍ كَبِيرٍ ، كُنَّا نَحْسَبُهُ جَزِيرَةً ، فَلَمَّا غَاصَ الْحُوتُ غَرِقُوا وَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ كَانَ قَرِيباً مِنَ الْمَرْكَبِ ، رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِمْ جَمِيعاً . وَقَدْ أَخَذْتُ

عَلَى نَفْسِى أَنْ أَبِيعَ بَضَائِعَهُ وَأُعْطِىَ أَهْلَهُ ثَمَنَهَا مَتَى عُدْتُ إِلَى «بَغْدَادَ»
فَقُلْتُ لِرُبَّانِ السَّفِينَةِ : « أَنَا السِّنْدِبَادُ الَّذِى تَذْكُرُهُ وَهَذِهِ بِضَاعَتِى ! »
فَصَاحَ الرُّبَّانُ فِى وَجْهِى صَيْحَةً عَظِيمَةً ، وَقَالَ لِى غَاضِبًا :

« أَمَا وَاللهِ لَقَدْ فَسَدَتِ الذِّمَمُ وَضَاعَتِ الْأَمَانَةُ مِنَ النَّاسِ !
كَيْفَ تَدَّعِى أَنَّكَ « السِّنْدِبَادُ » وَقَدْ رَأَيْتُهُ بِعَيْنِى وَهُوَ يَغْرَقُ
فِى الْبَحْرِ ؟ »

فَقُلْتُ لَهُ: « لَا تَغْضَبْ عَلَىَّ ، وَلَا تَعْجَلْ بِتَكْذِيبِ مَا أَقُولُ . »

*
* *

ثُمَّ قَصَصْتُ عَلَيْهِ كُلَّ مَا حَدَثَ لِى ، وَذَكَرْتُ لَهُ جَمِيعَ مَا دَارَ بَيْنَنَا
مِنَ الْكَلَامِ — مُنْذُ خَرَجْنَا مِنَ «الْبَصْرَةِ» إِلَى أَنْ غَاصَ بِنَا الْحُوتُ —
فَظَهَرَ لَهُ صِدْقُ قَوْلِى ، وَفَرِحَ بِنَجَاتِى فَرَحًا شَدِيداً وَعَانَقَنِى ، وَأَقْبَلَ
عَلَىَّ رِفَاقِى يُهَنِّئُونَنِى بِسَلَامَتِى وَنَجَاتِى مِنَ الْغَرَقِ . ثُمَّ شَكَرْتُ لِلرُّبَّانِ
أَمَانَتَهُ وَأَرَدْتُ أَنْ أُكَافِئَهُ عَلَى صَنِيعِهِ فَرَفَضَ وَلَمْ يَقْبَلْ مِنِّى شَيْئاً .

١٢ — اَلْعَوْدَةُ إِلَى الْوَطَنِ

فَتَخَيَّرْتُ هَدِيَّةً نَفِيسَةً قَدَّمْتُهَا إِلَى « الْمَهَرَاجَا » فَسَأَلَنِى :
« مِنْ أَيْنَ أَحْضَرْتَهَا ؟ » فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا حَدَثَ ، فَتَبَيَّنَ لَهُ صِدْقُ كَلَامِى
وَقَبِلَ هَدِيَّتِى مَسْرُوراً ، ثُمَّ أَمَرَ لِى بِهَدِيَّةٍ ثَمِينَةٍ .

وَلَمَّا اُسْتَأْذَنْتُهُ فِي السَّفَرِ أَذِنَ لِي — بَعْدَ أَنْ أَظْهَرَ لِي أَسَفَهُ عَلَى فِرَاقِي — فَخَرَجْتُ مِنْ عِنْدِهِ شَاكِراً ، وَبِعْتُ فِي بَلَدِهِ كُلَّ مَا مَعِي مِنَ اُلْبَضَائِعِ بِأَغْلَى ثَمَنٍ ، وَاشْتَرَيْتُ بَدَلَهَا بَضَائِعَ أُخْرَى .

وَعُدْتُ إِلَى بِلَادِي بِأَمْوَالٍ كَثِيرَةٍ ، بَعْدَ أَنْ سَارَ بِنَا اُلْمَرْكَبُ آمِناً ، وَكَانَ اُلْبَحْرُ هَادِئاً وَالرِّيحُ طَيِّبَةً فَلَمْ نَلْقَ أَيَّ عَنَاءٍ فِي سَفَرِنَا حَتَّى بَلَغْنَا « اُلْبَصْرَةَ » .

١٣ — فِي بَغْدَادَ

ثُمَّ ذَهَبْنَا مِنَ « اُلْبَصْرَةِ » إِلَى « بَغْدَادَ » حَيْثُ لَقِيَنِي أَهْلِي فَرِحِينَ بِعَوْدَتِي سَالِماً ، وَاشْتَرَيْتُ قُصُوراً فَخْمَةً وَعَبِيداً وَغِلْمَاناً كَثِيرِينَ ، وَأَصْبَحْتُ مِنْ أَكْبَرِ أَغْنِيَاءِ « بَغْدَادَ » ، وَتَصَدَّقْتُ عَلَى اُلْفُقَرَاءِ وَاُلْمَسَاكِينِ ، وَعَزَمْتُ عَلَى اُلْإِقَامَةِ فِي بَلَدِي بَعِيداً عَنْ مَشَقَّاتِ اُلسَّفَرِ وَأَهْوَالِ اُلْبَحْرِ ، وَأَنْسَتْنِي رَاحَةُ اُلْبَالِ مَا قَاسَيْتُهُ مِنَ اُلْمَتَاعِبِ وَاُلْأَهْوَالِ .

١٤ — دَهْشَةُ اُلْحَاضِرِينَ

وَلَمَّا اُنْتَهَى « السِّنْدِبَادُ » مِنْ كَلَامِهِ ، اُلْتَفَتَ إِلَى « اُلْهِنْدِبَادِ » اُلْحَمَّالِ وَقَالَ لَهُ مُبْتَسِماً : « هَذَا مَا حَدَثَ لِي فِي الرِّحْلَةِ اُلْأُولَى

وَسَأُخْبِرُكَ غَدًا بِمَا حَدَث لِي فِي رِحْلَتِي ٱلثَّانِيةِ ، وَمَا رَأَيْتُهُ فِيها مِنَ ٱلْعَجَائِبِ ! »

* * *

فَدُهِشَ « ٱلهِنْدِبَادُ ٱلْحَمَّالُ » وَعَجِبَ جَمِيعُ ٱلْحَاضِرِينَ مِمَّا سَمِعُوا .

ثُمَّ أَمَرَ « السِّنْدِبَادُ » بِمِائَةِ دِينَارٍ لِلْحَمَّالِ وَكَسَاهُ حُلَّةً نَفِيسَةً ، فَدَعَا لَهُ وَخَرَجَ مِنْ عِنْـدِهِ شَاكِراً مَسْرُوراً ، وَخَرَجَ مَعَهُ جَمِيعُ ٱلْحَاضِرِينَ عَلَى أَنْ يَعُودُوا إِلَى « ٱلسِّنْدِبَادِ » فِي ٱلْغَدِ .

وَلَمَّا حَضَرُوا فِي ٱلْيَوْمِ ٱلتَّالِي بَدَأَ « ٱلسِّنْدِبَادُ » يَقُصُّ عَلَيْهِمْ رِحْلَتَهُ الثَّانِيَةَ فَقَالَ :

فى وادى الأفاعى

١ — كَيْفَ نَسِيَنِى رِفَاقِى

حَدَّثْتُكُمْ أَمْسِ أَنَّنِى عَزَمْتُ عَلَى ٱلْإِقَامَةِ فِى « بَغْدَادَ » طُولَ حَيَاتِى هَادِئَ ٱلْبَالِ حَتَّى لَا أُعَرِّضَ نَفْسِى مَرَّةً أُخْرَى لِمَخَاطِرِ ٱلسَّفَرِ وَمَخَاوِفِهِ ، وَلَكِنَّنِى — بَعْدَ قَلِيلٍ مِنَ ٱلزَّمَنِ — ضَجِرْتُ بِهَذِهِ ٱلْحَيَاةِ ٱلْهَادِئَةِ ، وَمَلِلْتُ عِيشَةَ ٱلْكَسَلِ ، وَٱشْتَقْتُ إِلَى

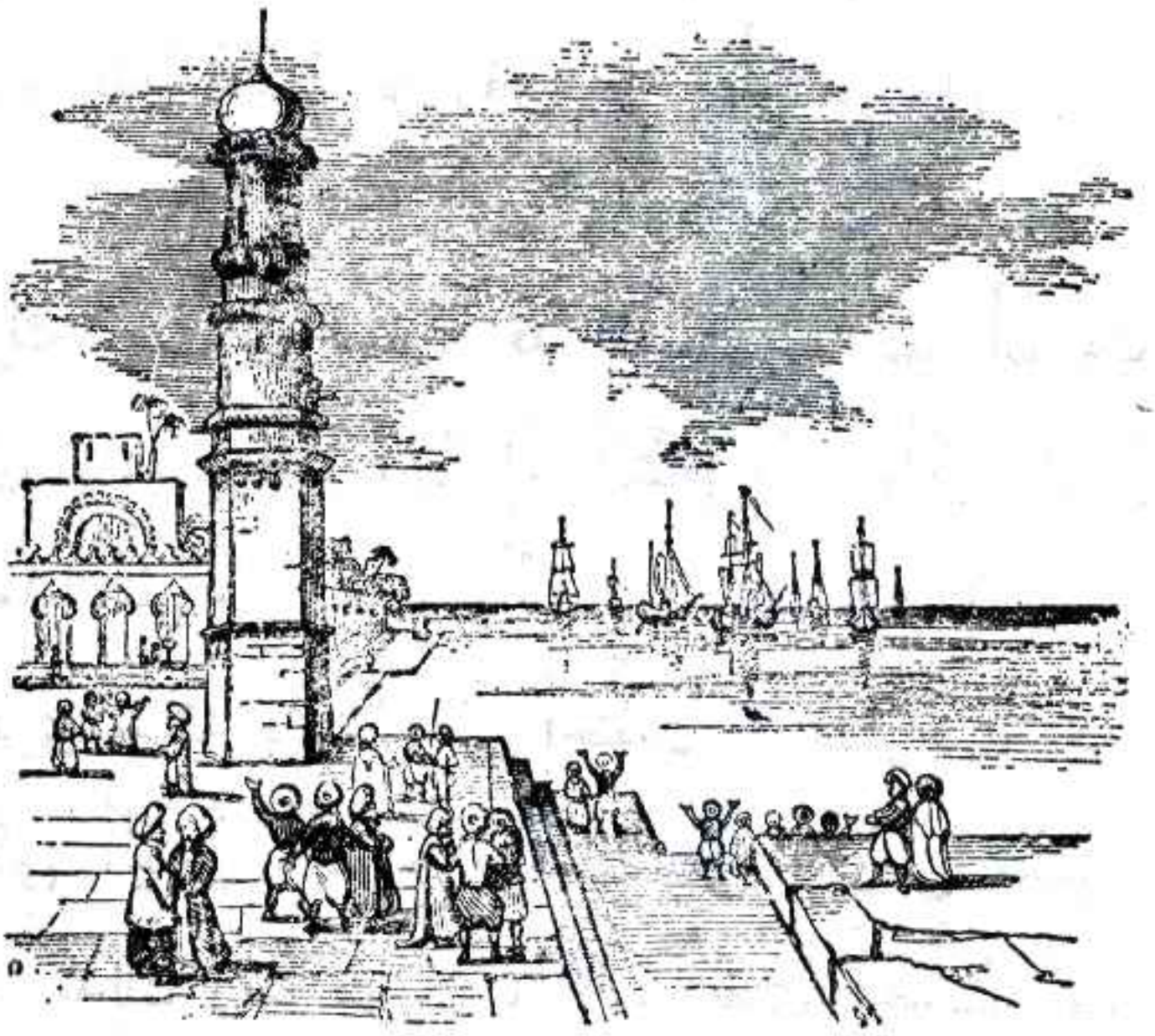

ٱلسَّفَرِ وَرُكُوبِ ٱلْبَحْرِ ، فَٱشْتَرَيْتُ بَضَائِعَ كَثِيرَةً ، وَسَافَرْتُ مِنْ « بَغْدَادَ » إِلَى « ٱلْبَصْرَةِ » حَيْثُ أَبْحَرْتُ مَعَ جَمَاعَةٍ مِنَ

التُّجَّارِ وَسَارَتْ بِنَا السَّفِينَةُ مِنْ جَزِيرَةٍ إِلَى جَزِيرَةٍ وَمِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ، وَكَانَتْ تِجَارَتُنَا رَابِحَةً حَتَّى بَلَغْنَا جَزِيرَةً كَبِيرَةً، جَمِيلَةَ ٱلْمَنْظَرِ، فِيهَا كَثِيرٌ مِنَ ٱلْأَشْجَارِ وَٱلْفَاكِهَةِ تَتَخَلَّلُهَا ٱلْجَدَاوِلُ وَالْأَنْهَارُ

* * *

فَنَزَلْنَا بِهَا فَلَمْ نَجِدْ فِيهَا أَحَداً مِنَ النَّاسِ، فَأَكَلْنَا مِنْ فَاكِهَتِهَا وَشَرِبْنَا مِنْ مَائِهَا ٱلْعَذْبِ، ثُمَّ ذَهَبَ أَصْحَابِي يَجُولُونَ فِي ٱلْجَزِيرَةِ وَجَلَسْتُ مُنْفَرِداً فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ كَبِيرَةٍ، وَأَمَامِي جَدْوَلٌ مِنَ ٱلْمَاءِ عَلَى جَانِبَيْهِ ٱلْأَزْهَارُ، فَأَخَذَتْنِي سِنَةٌ مِنَ ٱلنَّوْمِ — وَلَمْ أَعْلَمْ كَمْ سَاعَةً نِمْتُ — وَمَا كِدْتُ أَسْتَيْقِظُ حَتَّى تَمَلَّكَنِي ٱلرُّعْبُ وَٱلْفَزَعُ، فَقَدْ بَحَثْتُ عَنْ رِفَاقِي فَلَمْ أَعْثُرْ لَهُمْ عَلَى أَثَرٍ!

* * *

هُنَالِكَ عَلِمْتُ أَنَّ السَّفِينَةَ قَدْ أَقْلَعَتْ بِهِمْ دُونَ أَنْ يَنْتَبِهَ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَى غِيَابِي، فَأَسْرَعْتُ إِلَى ٱلشَّاطِئِ — وَأَنَا كَالْمَجْنُونِ لِشِدَّةِ مَا لَحِقَنِي مِنَ ٱلْجَزَعِ وَٱلْيَأْسِ — وَرَأَيْتُ السَّفِينَةَ تَغِيبُ عَنْ نَاظِرِي شَيْئاً فَشَيْئاً حَتَّى ٱخْتَفَتْ، فَصَرَخْتُ مِنَ ٱلْأَلَمِ وَتَمَلَّكَنِي ٱلْيَأْسُ وَٱلْفَزَعُ فَوَقَعْتُ عَلَى ٱلْأَرْضِ مَغْشِيّاً عَلَيَّ، وَبَقِيتُ كَذَلِكَ زَمَناً طَوِيلاً، وَلَمَّا أَفَقْتُ أَخَذْتُ أَلُومُ نَفْسِي عَلَى هَذِهِ ٱلرِّحْلَةِ ٱلْمَشْؤُومَةِ أَشَدَّ ٱللَّوْمِ وَأَنْدَمُ عَلَى سَفَرِي أَشَدَّ النَّدَمِ حَيْثُ لاَ يَنْفَعُ لَوْمٌ وَلاَ نَدَمٌ!

٢ ــ بَيْضَةُ ٱلرُّخِّ

وَتَلَفَّتُّ حَوْلِي فَلَمْ أَجِدْ أَحَداً ، فَتَسَلَّقْتُ شَجَرَةً عَالِيَةً وَرَمَيْتُ بِبَصَرِي فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ مِنْ نَوَاحِي ٱلْبَحْرِ ، فَلَمْ أَرَ شَيْئاً غَيْرَ ٱلْمَاءِ وَٱلسَّمَاءِ ، وَدُرْتُ بِبَصَرِي فِي ٱلْجَزِيرَةِ ، فَرَأَيْتُ ــ عَلَى بُعْدٍ ــ قُبَّةً بَيْضَاءَ عَالِيَةً تَلْمَعُ لَمَعَاناً شَدِيداً فِي ضَوْءِ ٱلشَّمْسِ ، فَنَزَلْتُ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ، وَجَرَيْتُ إِلَيْهَا بِكُلِّ قُوَّتِي حَتَّى دَنَوْتُ مِنْهَا فَرَأَيْتُهَا شَاهِقَةً ، فَلَمَسْتُهَا بِيَدِي فَإِذَا هِيَ مَلْسَاءُ لَا يُمْكِنُ الصُّعُودُ عَلَيْهَا ، وَدُرْتُ حَوْلَهَا فَلَمْ أَرَ لَهَا بَاباً وَلَا مَنْفَذاً ، فَلَمَّا قِسْتُ دَائِرَتَهَا وَجَدْتُهَا خَمْسِينَ خُطْوَةً .

٣ ــ طَيْرُ ٱلرُّخِّ

وَبَيْنَمَا أَنَا أَتَأَمَّلُهَا إِذْ وَجَدْتُ ٱلدُّنْيَا قَدْ أَظْلَمَتْ ، وَأَقْبَلَ عَلَيَّ سَوَادٌ عَظِيمٌ حَجَبَ عَنِّي ضَوْءَ ٱلشَّمْسِ ، فَتَأَمَّلْتُهُ فَإِذَا هُوَ طَائِرٌ عَظِيمُ ٱلْجِسْمِ ، فَذَكَرْتُ لِلْحَالِ مَا كُنْتُ أَسْمَعُهُ مِنَ ٱلْمُسَافِرِينَ وَٱلتُّجَّارِ عَنْ طَيْرِ ٱلرُّخِّ ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ هَذِهِ ٱلْقُبَّةَ ٱلْكَبِيرَةَ هِيَ بَيْضَتُهُ ، وَلَمْ يَكَدْ يَنْزِلُ طَيْرُ ٱلرُّخِّ حَتَّى جَلَسَ عَلَى بَيْضَتِهِ فَاحْتَضَنَهَا بِجَنَاحَيْهِ وَنَامَ فَوْقَهَا ، فَنَظَرْتُ إِلَى مِخْلَبِهِ فَرَأَيْتُهُ ــ لِعِظَمِهِ ــ كَأَنَّهُ جِذْعُ شَجَرَةٍ ، فَحَلَلْتُ عِمَامَتِي وَرَبَطْتُ

نَفْسِى بِإِحْدَى رِجْلَيْهِ رَبْطًا مُحْكَمًا ، رَجَاءَ أَنْ يَحْمِلَنِى فِى ٱلْيَوْمِ ٱلتَّالِى إِلَى مَكَانٍ آخَرَ غَيْرِ هَـذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ النَّائِيَةِ ، وَقَدْ تَحَقَّقَ ظَنِّى فَلَمْ يَكَدْ يَطْلُعُ ٱلْفَجْرُ حَتَّى طَارَ ، وَمَا زَالَ يَعْلُو فِى ٱلْفَضَاءِ حَتَّى ٱخْتَفَتِ ٱلْأَرْضُ عَنْ نَاظِرِى ، وَظَلَّ طَائِراً بِى مُدَّةً مِنَ ٱلزَّمَنِ ثُمَّ هَبَطَ بِى فَجْأَةً إِلَى ٱلْأَرْضِ فَأُغْمِىَ عَلَىَّ ، ثُمَّ أَفَقْتُ لِنَفْسِى

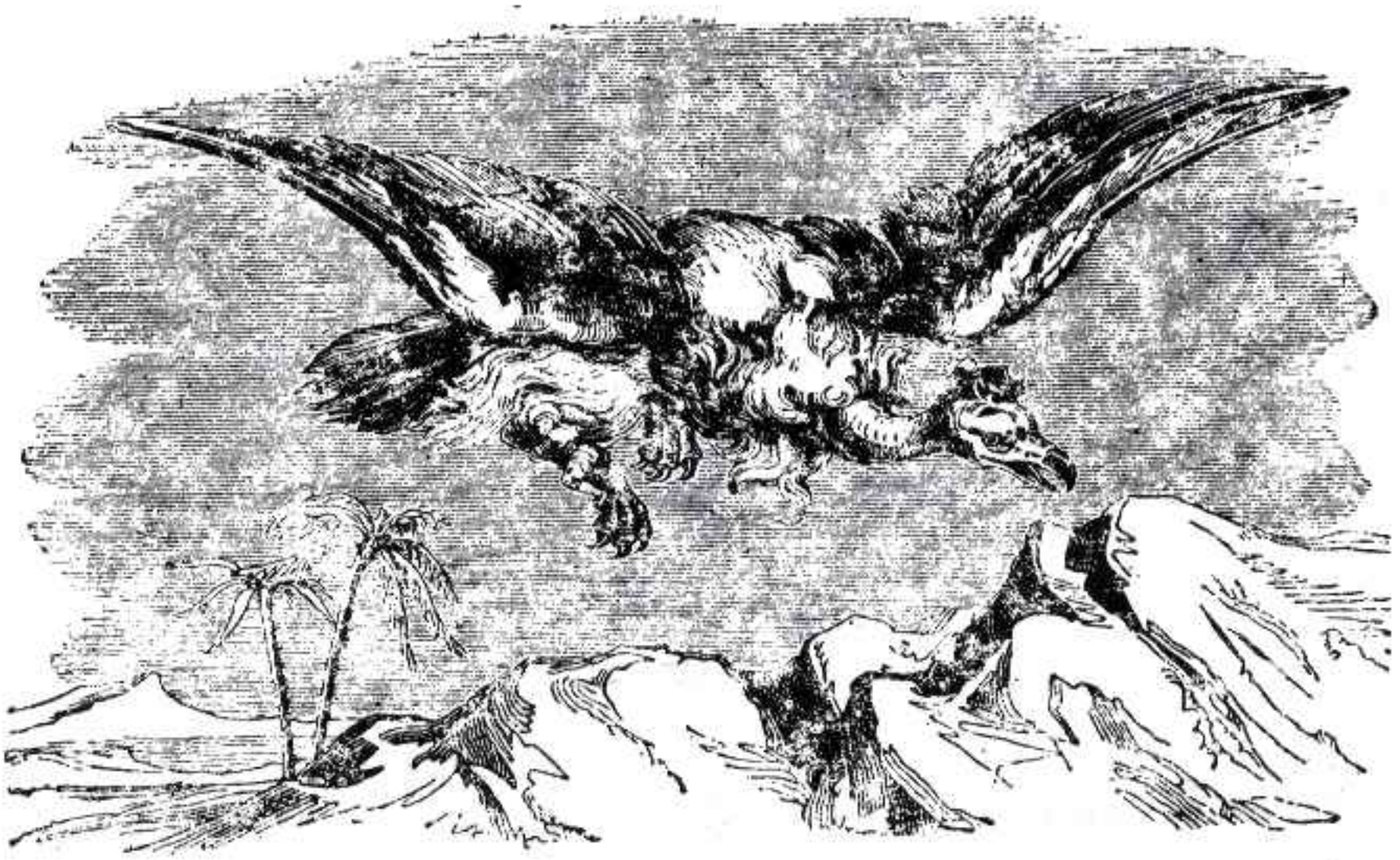

فَرَأَيتُ طَيْرَ ٱلرُّخِّ قَدْ وَقَفَ عَلَى ٱلْأَرْضِ ، فَفَـكَكْتُ رِبَاطِى لِلْحَالِ ، وَفَرِحْتُ بِالْخَلَاصِ مِنْ تِلْكَ ٱلْجَزِيرَةِ ٱلْمُقْفِرَةِ .

٤ — فِى وَادِى ٱلْأَفَاعِى

وَلَـكِنَّ فَرَحِى لَمْ يَطُلْ ، فَقَدْ رَأَيتُ طَيْرَ ٱلرُّخِّ ، قَدِ ٱنْقَضَّ عَلَى حَيَّةٍ كَبِيرَةٍ فَابْتَلَعَهَا وَطَارَ فِى ٱلْفَضَاءِ ، وَمَا زَالَ طَائِراً حَتَّى غَابَ عَنِّى .

فَنَظَرْتُ إِلَى مَا حَوْلِى ، فَنَدِمْتُ عَلَى تَرْكِ ٱلْجَزِيرَةِ وَٱلْمَجِيءِ إِلَى هَذَا ٱلْمَكَانِ ٱلَّذِى لَمْ تُكْتَبِ ٱلسَّلَامَةُ لِأَحَدٍ وَصَلَ إِلَيْهِ . فَقَدْ هَبَطَ بِى ٱلرُّخُّ — لِسُوءِ حَظِّى — إِلَى وَادٍ عَمِيقٍ تُحِيطُ بِهِ جِبَالٌ شَاهِقَةٌ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ ، وَلَيْسَ فِيهَا مَكَانٌ لِلصُّعُودِ وَلَا مَنْفَذٌ يَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْإِنْسَانُ . فَقُلْتُ لِنَفْسِى :

« إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ! كُلَّمَا نَجَوْتُ مِنْ مُصِيبَةٍ وَقَعْتُ فِى مُصِيبَةٍ شَرٍّ مِنْهَا ! »

٥ — حِجَارَةُ ٱلْمَاسِ

وَنَظَرْتُ إِلَى أَرْضِ ٱلْوَادِى ، فَرَأَيْتُ حِجَارَتَهُ مِنَ ٱلْمَاسِ ، فَفَرِحْتُ بِذَلِكَ فَرَحًا شَدِيداً ، وَلَكِنَّ فَرَحِى لَمْ يَدُمْ طَوِيلاً فَقَدْ رَأَيْتُ فِى ٱلْوَادِى كَثِيراً مِنَ ٱلْأَفَاعِى ٱلْهَائِلَةِ ٱلَّتِى تَبْتَلِعُ ٱلْفِيلَ بِسُهُولَةٍ — لِضَخَامَتِهَا وَكِبَرِ حَجْمِهَا — وَكَانَتْ هَذِهِ ٱلْأَفَاعِى — لِحُسْنِ حَظِّى — تَخْتَفِى فِى ٱلْكُهُوفِ وَٱلْمَغَارَاتِ أَثْنَاءَ ٱلنَّهَارِ خَوْفًا مِنْ طَيْرِ الرُّخِّ — وَهُوَ عَدُوُّهَا ٱللَّدُودُ ٱلَّذِى يَبْتَلِعُهَا كُلَّمَا ظَهَرَتْ — فَإِذَا أَظْلَمَ ٱللَّيْلُ خَرَجَتِ ٱلْأَفَاعِى كُلُّهَا إِلَى ٱلْوَادِى .

٦ – فِي ٱلْكَهْفِ

فَمَشَيْتُ فِي ذَلِكَ ٱلْوَادِي طُولَ ٱلنَّهَارِ ، وَلَمَّا جَاءَ ٱللَّيْلُ أَسْرَعْتُ إِلَى كَهْفٍ صَغِيرٍ فَدَخَلْتُهُ وَسَدَدْتُ مَنْفَذَهُ بِحَجَرٍ كَبِيرٍ حَتَّى آمَنَ شَرَّ ٱلْأَفَاعِي ، وَأَكَلْتُ مِنَ ٱلزَّادِ ٱلْقَلِيلِ ٱلَّذِي أَحْضَرْتُهُ مَعِي مِنَ ٱلْجَزِيرَةِ ، وَحَاوَلْتُ أَنْ أَنَامَ فَلَمْ أَسْتَطِعْ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا ، فَقَدْ كُنْتُ أَسْمَعُ فَحِيحَ ٱلْأَفَاعِي – وَهِيَ تَزْحَفُ أَمَامَ ٱلْكَهْفِ – فَيَمْتَلِئُ قَلْبِي رُعْبًا ، وَمَا زِلْتُ طُولَ ٱللَّيْلِ خَائِفًا أَتَوَقَّعُ ٱلشَّرَّ .

٧ – فِي صَبَاحِ ٱلْيَوْمِ التَّالِي

وَلَمَّا طَلَعَ ٱلصَّبَاحُ ٱنْقَطَعَ فَحِيحُ ٱلْأَفَاعِي فَعَلِمْتُ أَنَّهَا قَدْ عَادَتْ إِلَى مَخَابِئِهَا وَكُهُوفِهَا فَحَمِدْتُ ٱللَّهَ عَلَى ذَلِكَ ، وَخَرَجْتُ

مِنَ ٱلْكَهْفِ وَمَشَيْتُ فى ٱلْوَادِى — وَأَنَا أُفَكِّرُ فِى هَذِهِ ٱلنِّهَايَةِ ٱلْمُحْزِنَةِ ٱلَّتِى وَصَلْتُ إِلَيْهَا — وَرَأَيْتُ كُلَّ مَا فِيهِ — مِنْ أَحْجَارِ ٱلْمَاسِ ٱلثَّمِينَةِ — لَا يُسَاوِى عِنْدِى شَيْئًا . وَتَمَنَّيْتُ لَوْ كَانَ فِى ذَلِكَ ٱلْوَادِى — بَدَلَ هَذِهِ ٱلْحِجَارَةِ ٱلْكَرِيمَةِ — شَىْءٌ مِنَ ٱلطَّعَامِ أَوِ ٱلشَّرَابِ .

* * *

وَرَأَيْتُ صَخْرَةً قَرِيبَةً مِنِّى فَجَلَسْتُ عَلَيْهَا — وَأَنَا مَهْمُومٌ لَا أَمَلَ لِى فِى ٱلْخَلَاصِ — فَغَلَبَنِى ٱلنُّعَاسُ فَنِمْتُ قَلِيلًا ، ثُمَّ ٱسْتَيْقَظْتُ مَذْعُوراً خَائِفًا فَرَأَيْتُ قِطَعًا كَبِيرَةً مِنَ ٱللَّحْمِ تَتَسَاقَطُ — إِلَى جَانِبِى — عَلَى أَرْضِ ٱلْوَادِى مِنْ أَعْلَى ٱلْجَبَلِ .

٨ — كَيْفَ يَحْصُلُ ٱلتُّجَّارُ عَلَى ٱلْمَاسِ

فَذَكَرْتُ مَا كُنْتُ أَسْمَعُهُ مِنَ ٱلتُّجَّارِ عَنْ وَادِى ٱلْمَاسِ وَعَنِ ٱلطَّرِيقَةِ ٱلْعَجِيبَةِ ٱلَّتِى يَحْصُلُونَ بِهَا عَلَى أَحْجَارِهِ . وَهِىَ أَنْ يَذْبَحُوا ٱلْخِرَافَ وَيَسْلَخُوا مِنْهَا جِلْدَهَا ثُمَّ يُلْقُوا بِلَحْمِهَا ٱلطَّرِى إِلَى أَرْضِ ذَلِكَ ٱلْوَادِى فَتَلْصَقَ بِهِ أَحْجَارُ ٱلْمَاسِ . وَتَأْتِى ٱلنُّسُورُ — بَعْدَ قَلِيلٍ مِنَ ٱلزَّمَنِ — فَتَخْطَفُهُ وَتَحْمِلُهُ إِلَى أَعْلَى ٱلْجَبَلِ ، فَيَصِيحُ بِهَا ٱلتُّجَّارُ فَتَهْرُبُ مِنْهُمْ خَائِفَةً تَارِكَةً لَهُمْ

مَا مَعَهَا مِنَ ٱللَّحْمِ ، فَيَأْخُذُ كُلٌّ مِنْهُمْ مَا عَلِقَ بِقِطْعَتِهِ مِنَ ٱلْمَاسِ تَارِكًا ٱللَّحْمَ — بَعْدَ ذَلِكَ — لِلنُّسُورِ ٱلْجَائِعَةِ .

وَقَدْ كُنْتُ قَبْلَ ٱلْيَوْمِ أَحْسَبُ هَـٰذَا ٱلْكَلَامَ خُرَافَةً يَرْوِيهَا ٱلنَّاسُ — عَلَى سَبِيلِ ٱلْفُكَاهَةِ وَٱلتَّسْلِيَةِ — حَتَّى رَأَيْتُهُ بِعَيْنِي حَقِيقَةً وَاقِعَةً .

٩ — كَيْفَ نَجَا ٱلسِّنْدِبَادُ مِنْ وَادِي ٱلْأَفَاعِي

فَبَدَا لِي أَمَلٌ فِي ٱلنَّجَاةِ ، وَتَخَيَّرْتُ مِنْ أَحْجَارِ ٱلْمَاسِ أَنْفَسَهَا ثُمَّ نِمْتُ عَلَى ظَهْرِي وَوَضَعْتُ فَوْقِي أَحَدَ هَذِهِ ٱلْخِرَافِ ٱلْمَذْبُوحَةِ وَأَمْسَكْتُهُ بِيَدَيَّ — بِكُلِّ قُوَّتِي — حَتَّى جَاءَتِ النُّسُورُ فَرَفَعَتْ تِلْكَ

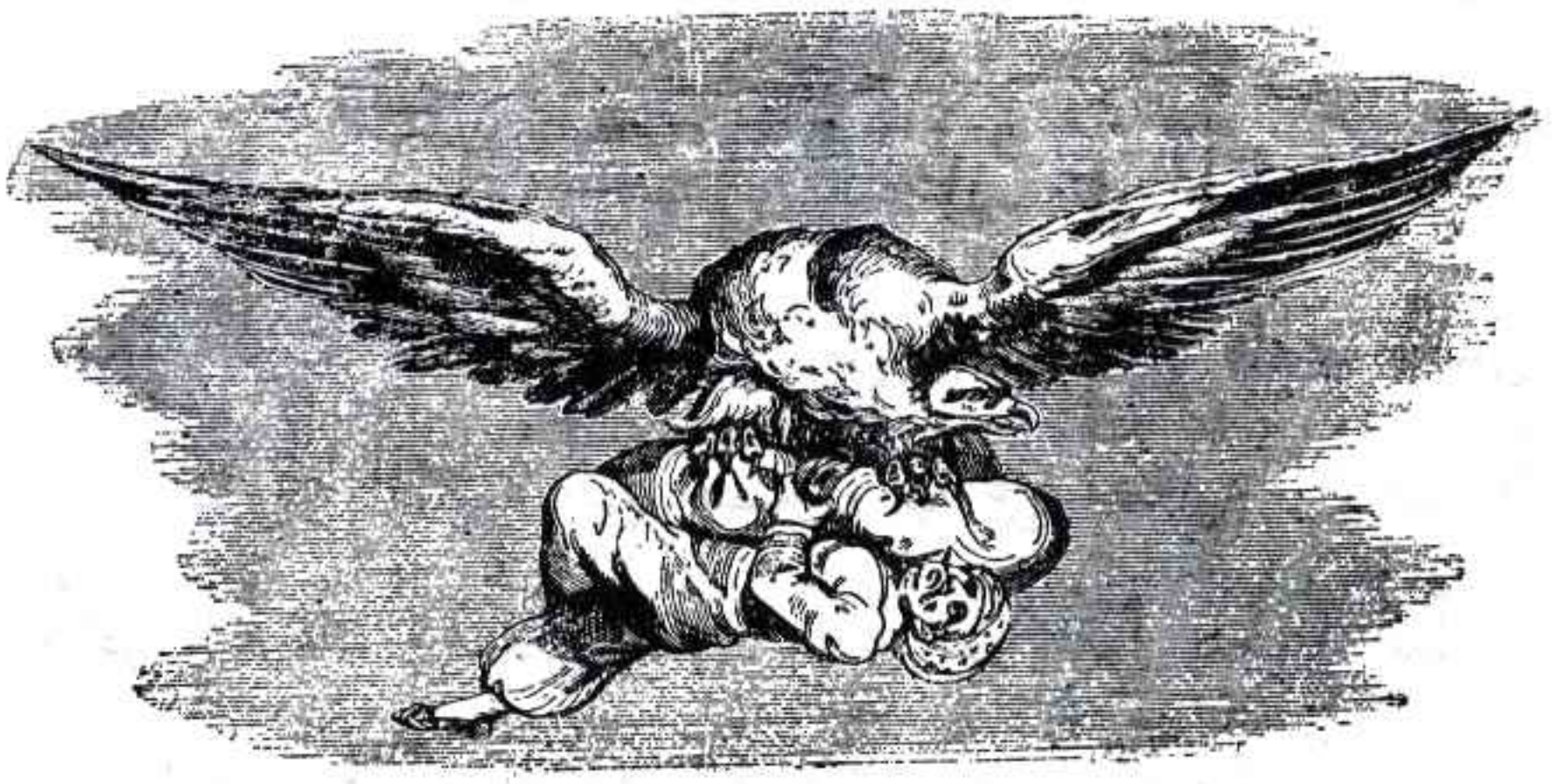

ٱللُّحُومَ . وَجَاءَ نَسْرٌ كَبِيرٌ فَرَفَعَ ٱلذَّبِيحَةَ ٱلَّتِي كُنْتُ مُتَعَلِّقًا بِهَا ، وَلَمْ يَزَلْ طَائِرًا حَتَّى بَلَغَ أَعْلَى ٱلْجَبَلِ فَوَضَعَهَا عَلَيْهِ . وَأَسْرَعَ

اَلتُّجَّارُ إِلَى اَلنُّسُورِ فَخَافَتْ وَهَرَبَتْ مِنْهُمْ تَارِكَةً لَهُمْ مَا مَعَهَا مِنَ اللَّحْمِ ، فَوَقَفْتُ عَلَى قَدَمَىَّ ، وَلَمْ يَكَدْ يَرَانِى صَاحِبُ الذَّبِيحَةِ حَتَّى تَمَلَّكَهُ اَلْخَوْفُ وَاَلْفَزَعُ . وَنَظَرَ إِلَى ذَبِيحَتِهِ فَلَمْ يَجِدْ بِهَا شَيْئاً مِنَ اَلْمَاسِ . فَصَرَخَ وَلَطَمَ وَجْهَهُ نَادِباً سُوءَ حَظِّهِ وَضَيَاعَ تَعَبِهِ بِلاَ فَائِدَةٍ . فَدَنَوْتُ مِنْهُ وَحَيَّيْتُهُ فَاطْمَأَنَّ ، ثُمَّ أَعْطَيْتُهُ كَثِيراً مِنَ اَلْمَاسِ ، فَتَبَدَّلَ حُزْنُهُ فَرَحًا وَسُرُوراً ، وَسَأَلَنِى عَنْ قِصَّتِى فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا حَدَثَ لِى فَدُهِشَ ، وَدُهِشَ مَعَهُ جَمِيعُ التُّجَّارِ أَشَدَّ دَهْشَةٍ .

١٠ — اَلْعَوْدَةُ إِلَى بَغْـــدَادَ

ثُمَّ سَافَرْتُ مَعَهُمْ إِلَى بِلاَدِى . وَقَدْ رَأَيْتُ فِى طَرِيقِى كَثِيراً مِنَ اَلْعَجَائِبِ الَّتِى يَحَارُ فِيهَا اَلْعَقْلُ . وَمَا زِلْنَا سَائِرِينَ أَيَّاماً وَلَيَالِىَ حَتَّى بَلَغْنَا « بَغْدَادَ » وَكَانَ مَعِى مِنَ اَلْمَاسِ شَىْءٌ كَثِيرٌ لاَ تُقَدَّرُ قِيمَتُهُ لِنَفَاسَتِهِ .

وَلَمْ أَكَدْ أَدْخُلُ « بَغْدَادَ » حَتَّى لَقِيَنِى أَهْلِى وَأَصْحَابِى فَرِحِينَ بِعَوْدَتِى فَرَحًا شَدِيداً ، وَتَصَدَّقْتُ عَلَى اَلْفُقَرَاءِ وَاَلْمَسَاكِينِ بَعْدَ ذَلِكَ وَعَزَمْتُ عَلَى تَرْكِ اَلْأَسْفَارِ وَاَلْبَقَاءِ فِى « بَغْدَادَ » طُولَ عُمْرِى .

وَلَمَّا اُنْتَهَى « اَلسِّنْدِبَادُ » مِنْ كَلاَمِهِ أَمَرَ لِلْحَمَّالِ بِمِائَةِ دِينَارٍ ، فَدَعَا لَهُ وَأَخَذَهَا مِنْهُ شَاكِراً ، وَانْصَرَفَ هُوَ وَجَمِيعُ اَلْحَاضِرِينَ عَلَى أَنْ يَعُودُوا إِلَيْهِ فِى اَلْيَوْمِ اَلتَّالِى ، وَلَمَّا حَضَرُوا فِى اَلْغَدِ بَدَأَ « اَلسِّنْدِبَادُ » يَقُصُّ عَلَيْهِمْ مَا حَدَثَ لَهُ فِى رِحْلَتِهِ الثَّالِثَةِ فَقَالَ :

الرحلة الثالثة

فى بلَادِ الأقـزام وَالعَمالقة

١ – هبُوبُ ٱلْعَاصِفَةِ

بَعْدَ أَنْ عُدْتُ مِنْ رِحْلَتِى الثَّانِيَةِ أَقَمْتُ بِبَغْدَادَ مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ هَادِئَ ٱلْبَالِ مُسْتَرِيحَ ٱلْقَلْبِ لَا يُعَكِّرُ صَفْوِى أَىُّ كَدَرٍ ، وَلَـكِنَّ نَفْسِى سَئِمَتْ حَيَاةَ ٱلْـكَسَلِ وَالرَّاحَةِ وَاشْتَاقَتْ إِلى السَّفَرِ وَمَا فِيهِ مِنْ رِبحٍ وَفِيرٍ ، فَاشْتَرَيْتُ كَثِيراً مِنَ ٱلْبَضَائِعِ وَسَافَرْتُ بِهَا مِنْ « بَغْدَادَ » إِلى « ٱلْبَصْرَةِ » حَيْثُ ٱكْتَرَيْتُ أَنَا وَبَعْضُ التُّجَّارِ مَرْكَباً كَبِيراً أَقْلَعَ بِنَا وَسَارَ فِى عُرْضِ ٱلْبَحْرِ ، وَلَمْ نَزَلْ نَنْتَقِلُ مِنْ بَلَدٍ إِلى بَلَدٍ وَمِنْ جَزِيرَةٍ إِلى جَزِيرَةٍ وَنَحْنُ نَبِيعُ وَنَشْتَرِى وَنَرْبَحُ أَرْبَاحًا طَائِلَةً حَتَّى هَبَّتْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ فَظَلَّتِ ٱلْأَمْوَاجُ تَتَقَاذَفُ ٱلْمَرْكَبَ وَيُهَدِّدُنَا ٱلْغَرَقُ فِى كُلِّ لَحْظَةٍ ، وَمَا زِلْنَا كَذَلِكَ حَتَّى ضَلَلْنَا الطَّرِيقَ وَمَكَثْنَا عِدَّةَ أَيَّامٍ تَائِهِينَ فِى ٱلْبَحْرِ لَا يَقَرُّ لَنَا قَرَارٌ حَتَّى لَاحَتْ لَنَا جَزِيرَةٌ كَبِيرَةٌ ، فَلَمْ يَكَدْ يَرَاهَا الرُّبَّانُ حَتَّى لَطَمَ وَجْهَهُ بِيَدَيْهِ وَأَلْقَى بِعِمَامَتِهِ إِلى ٱلْأَرْضِ وَصَاحَ خَائِفاً مَذْعُوراً :

« لَقَدْ هَلَـكْنَا وَضَاعَ كُلُّ أَمَلٍ فِى نَجَاتِنَا »

٢ – مَعَ ٱلْأَقْزَامِ

فَسَأَلْنَاهُ عَنْ سَبَبِ ذَلِكَ فَقَالَ : « إِنَّ هَذِهِ ٱلْجَزِيرَةَ وَمَا يُحَاوِرُهَا مِنَ ٱلْجَزَائِرِ يَقْطُنُهَا قَوْمٌ مِنَ ٱلْأَقْزَامِ ٱلْمُتَوَحِّشِينَ وَهُمْ – عَلَى قِصَرِ قَامَاتِهِمْ – كَثِيرُو ٱلْعَدَدِ ، وَلَيْسَ فِى ٱسْتِطَاعَتِنَا أَنْ نُقَاوِمَهُمْ » .

وَلَمْ يَكَدْ يَنْتَهِى ٱلرُّبَّانُ مِنْ كَلَامِهِ حَتَّى خَاضَ إِلَيْنَا ٱلْمَاءَ أُولَئِكَ ٱلْهَمَجُ ٱلْمُتَوَحِّشُونَ وَأَحَاطُوا بِنَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَكَانَ طُولُ كُلٍّ مِنْهُمْ لَا يَزِيدُ عَلَى قَدَمَيْنِ ، وَعَلَى جُسُومِهِمْ فِرَاءٌ حُمْرُ ٱلْأَلْوَانِ وَتَحَدَّثُوا بِكَلَامٍ لَا نَفْهَمُهُ ، ثُمَّ قَادُوا السَّفِينَةَ مُسْرِعِينَ إِلَى شَاطِئِ ٱلْجَزِيرَةِ فَلَمْ نَسْتَطِعِ ٱلدِّفَاعَ عَنْ أَنْفُسِنَا لِكَثْرَةِ عَدَدِهِمْ ، وَٱسْتَسْلَمْنَا عَاجِزِينَ عَنْ كُلِّ مُقَاوَمَةٍ .

ثُمَّ أَنْزَلُونَا مِنَ ٱلْمَرْكَبِ عَلَى شَاطِئِ ٱلْجَزِيرَةِ وَأَقْلَعُوا بِهِ إِلَى مَكَانٍ نَجْهَلُهُ وَتَرَكُونَا حَيَارَى لَا نَدْرِى كَيْفَ نَعْمَلُ .

فَسِرْنَا فِى ٱلْجَزِيرَةِ كَاسِفِى ٱلْبَالِ لَا أَمَلَ لَنَا فِى النَّجَاةِ وَٱلْخَلَاصِ مِنْ هَذَا ٱلْأَسْرِ .

٣ – قَصْرُ ٱلْعِمْلَاقِ

وَلَاحَ لَنَا قَصْرٌ كَبِيرٌ – عَلَى مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ مِنَ ٱلْجَزِيرَةِ – فَقَصَدْنَا إِلَيْهِ ، حَتَّى بَلَغْنَاهُ ، فَوَجَدْنَاهُ قَلْعَةً شَاهِقَةً مُحْكَمَةَ ٱلْبِنَاءِ ،

فَتَعَاوَنَّا جَمِيعاً عَلَى فَتْحِ بَابِهِ ٱلْكَبِيرِ، ثُمَّ دَخَلْنَا فِنَاءَهُ ، فَوَجَدْنَا فِيهِ كَوْمَةً مِنَ ٱلْعِظَامِ ٱلْبَشَرِيَّةِ ، فَهَالَنَا ذَلِكَ ٱلْمَنْظَرُ وَٱمْتَلَأَتْ قُلُوبُنَا مِنْهُ رُعْباً . وَلَمْ يَنْطِقْ أَحَدٌ مِنَّا بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ — لِشِدَّةِ مَا لَحِقَنَا مِنَ ٱلذُّعْرِ — وَبَقِينَا خَائِفِينَ طُولَ ٱلنَّهَارِ حَتَّى إِذَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ ، سَمِعْنَا صَرِيرَ ٱلْبَابِ ٱلْخَارِجِيِّ وَهُوَ يُقْفَلُ ، وَرَأَيْنَا عِمْلَاقاً هَائِلاً يَدْخُلُ عَلَيْنَا وَهُوَ — فِي مِثْلِ طُولِ ٱلنَّخْلَةِ — أَسْوَدُ ٱلْوَجْهِ ، لَهُ عَيْنٌ وَاحِدَةٌ يَكَادُ يَتَطَايَرُ مِنْهَا الشَّرَرُ ، وَأَنْيَابٌ طَوِيلَةٌ حَادَّةٌ مُرَوِّعَةٌ !

٤ — فِي حَضْرَةِ ٱلْعِمْلَاقِ

وَلَمْ نَكَدْ نَرَاهُ حَتَّى تَمَلَّكَنَا ٱلرُّعْبُ وَٱسْتَوْلَى عَلَيْنَا ٱلْهَلَعُ وَٱلْفَزَعُ وَصِرْنَا كَالْمَوْتَى وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْنَا نَظَرَاتٍ مُخِيفَةً ، ثُمَّ أَقْتَرَبَ مِنِّي وَأَمْسَكَ بِي — وَأَنَا كَالْعُصْفُورِ فِي يَدِهِ — فَرَآنِي نَحِيفاً

هَزِيلَ ٱلْجِسْمِ ، فَتَرَكَنِي ، وَأَخَذَ غَيْرِي فَرَآهُ نَحِيفاً فَلَمْ يُعْجِبْهُ أَيْضاً .

٥ - كَيْفَ شَوَى ٱلرُّبَّانَ

وَنَظَرَ ٱلْعِمْلَاقُ إِلَى ٱلرُّبَّانِ فَرَآهُ سَمِيناً فَأَعْجَبَهُ ، وَأَمْسَكَ بِهِ وَلَوَى رَقَبَتَهُ بِيَدِهِ ، ثُمَّ جَاءَ بِسَفُّودٍ طَوِيلٍ فَأَنْفَذَهُ فِيهِ ، وَأَوْقَدَ نَاراً

حَامِيَةً وَوَضَعَهُ عَلَيْهَا ، وَمَا زَالَ يُقَلِّبُهُ حَتَّى شَوَاهُ فَأَكَلَ لَحْمَهُ وَرَمَى عِظَامَهُ عَلَى ٱلْأَرْضِ ، ثُمَّ نَامَ فَسَمِعْنَا لَهُ شَخِيراً عَالِياً .

٦ — فِى ٱلْيَوْمِ التَّالِى

وَلَمَّا أَصْبَحَ الصَّبَاحُ خَرَجَ ٱلْعِمْلَاقُ مِنَ ٱلْقَصْرِ وَتَرَكَنَا ، فَخَرَجْنَا إِلَى ٱلْجَزِيرَةِ يَائِسِينَ ، وَتَمَنَّيْنَا لَوْ كُنَّا غَرِقْنَا فِى ٱلْبَحْرِ وَلَمْ نَقَعْ فِى قَبْضَةِ هَذَا ٱلْغُولِ ٱلْمُخِيفِ ، حَتَّى لَا يَكُونَ نَصِيبَنَا هَـذِهِ ٱلْمَوْتَةُ الشَّنْعَاءَ الَّتِى لَمْ تَكُنْ لِتَخْطُرَ لَنَا عَلَى بَالٍ .

وَبَحَثْنَا طُولَ النَّهَارِ عَنْ مَكَانٍ نَخْتَبِئُ فِيهِ فَلَمْ نَظْفَرْ بِطَائِلٍ ، فَعُدْنَا إِلَى ٱلْقَصْرِ خَائِفِينَ ، وَجَاءَ ٱلْعِمْلَاقُ بَعْدَ قَلِيلٍ فَشَوَى أَحَدَنَا — كَمَا شَوَى بِالْأَمْسِ رُبَّانَ السَّفِينَةِ — وَأَكَلَهُ وَنَامَ إِلَى الصَّبَاحِ ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى حَيْثُ لَا نَدْرِى ، وَخَرَجْنَا هَائِمِينَ فِى ٱلْجَزِيرَةِ ، وَقَدْ أَشَارَ عَلَيْنَا بَعْضُ رِفَاقِنَا أَنْ نُلْقِيَ بِأَنْفُسِنَا فِى ٱلْبَحْرِ حَتَّى نَنْجُوَ مِنْ هَذِهِ ٱلْمَوْتَةِ ٱلْمُرَوِّعَةِ . وَأَشَارَ آخَرُونَ أَنْ نَحْتَالَ لِقَتْلِ ٱلْعِمْلَاقِ .

٧ — فُلْكُ ٱلنَّجَاةِ

فَأَشَرْتُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُهَيِّئُوا فُلْكًا مِنْ خَشَبِ ٱلْأَشْجَارِ ، حَتَّى إِذَا لَمْ نَنْجَحْ فِى قَتْلِ ٱلْعِمْلَاقِ هَرَبْنَا مِنَ ٱلْجَزِيرَةِ فِى تِلْكَ ٱلْفُلْكِ ، فَفَرِحُوا جَمِيعًا بِهَذَا الرَّأْيِ ، وَشَرَعْنَا فِى ٱلْعَمَلِ بِجِدٍّ وَنَشَاطٍ حَتَّى إِذَا تَمَّتِ ٱلْفُلْكُ وَضَعْنَا فِيهَا مَا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الزَّادِ وَرَبَطْنَاهَا إِلَى شَاطِئِ ٱلْبَحْرِ .

٨ — تَنْفِيذُ ٱلْمُؤَامَرَةِ

وَعُدْنَا إِلَى ٱلْقَصْرِ ، فَجَاءَ ٱلْعِمْلَاقُ فَفَعَلَ بِثَالِثٍ مِنَّا مَا فَعَلَهُ بِسَابِقَيْهِ ثُمَّ نَامَ كَعَادَتِهِ وَعَلَا شَخِيرُهُ ، فَوَضَعْنَا سَفُّودَيْنِ فِى النَّارِ حَتَّى ٱحْمَرَّا ، ثُمَّ أَدْخَلْنَاهُمَا مَعًا بِقُوَّةٍ فِى عَيْنِهِ — وَهُوَ نَائِمٌ — فَصَرَخَ صَرْخَةً هَائِلَةً مِنْ شِدَّةِ ٱلْأَلَمِ ، وَقَامَ هَائِجًا كَالْمَجْنُونِ يَبْحَثُ عَنَّا

بَعْدَ أَنْ عَمِيَتْ عَيْنُهُ ، فَلَمْ يَهْتَدِ إِلَى أَحَدٍ ، فَسَارَ إِلَى ٱلْبَابِ فَفَتَحَهُ وَخَرَجَ ، فَفَرِحْنَا بِذَلِكَ وَحَسِبْنَا أَنَّنَا أَصْبَحْنَا بِمَأْمَنٍ مِنْ شَرِّهِ !

٩ ــ اِنْتِقَامُ ٱلْعَمَالِقَةِ

وَلَكِنَّ فَرَحَنَا لَمْ يَطُلْ ، فَقَدْ جَاءَ إِلَيْنَا ــ بَعْدَ قَلِيلٍ ــ جَمَاعَةٌ مِنَ ٱلْعَمَالِقَةِ يُغَايِرُونَهُ فِي ٱلشَّكْلِ وَلَا يَقِلُّونَ عَنْهُ وَحْشِيَّةً وَفَظَاظَةً ، فَهَرَبْنَا مِنْهُمْ مُسْرِعِينَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي صَنَعْنَاهَا ، فَلَمَّا رَأَوْنَا فِي ٱلْبَحْرِ ظَلُّوا يَرْجُمُونَنَا بِحِجَارَةٍ كَبِيرَةٍ فَقَتَلُوا رِفَاقِي وَلَمْ يَنْجُ مَعِي مِنْهُمْ إِلَّا ٱثْنَانِ .

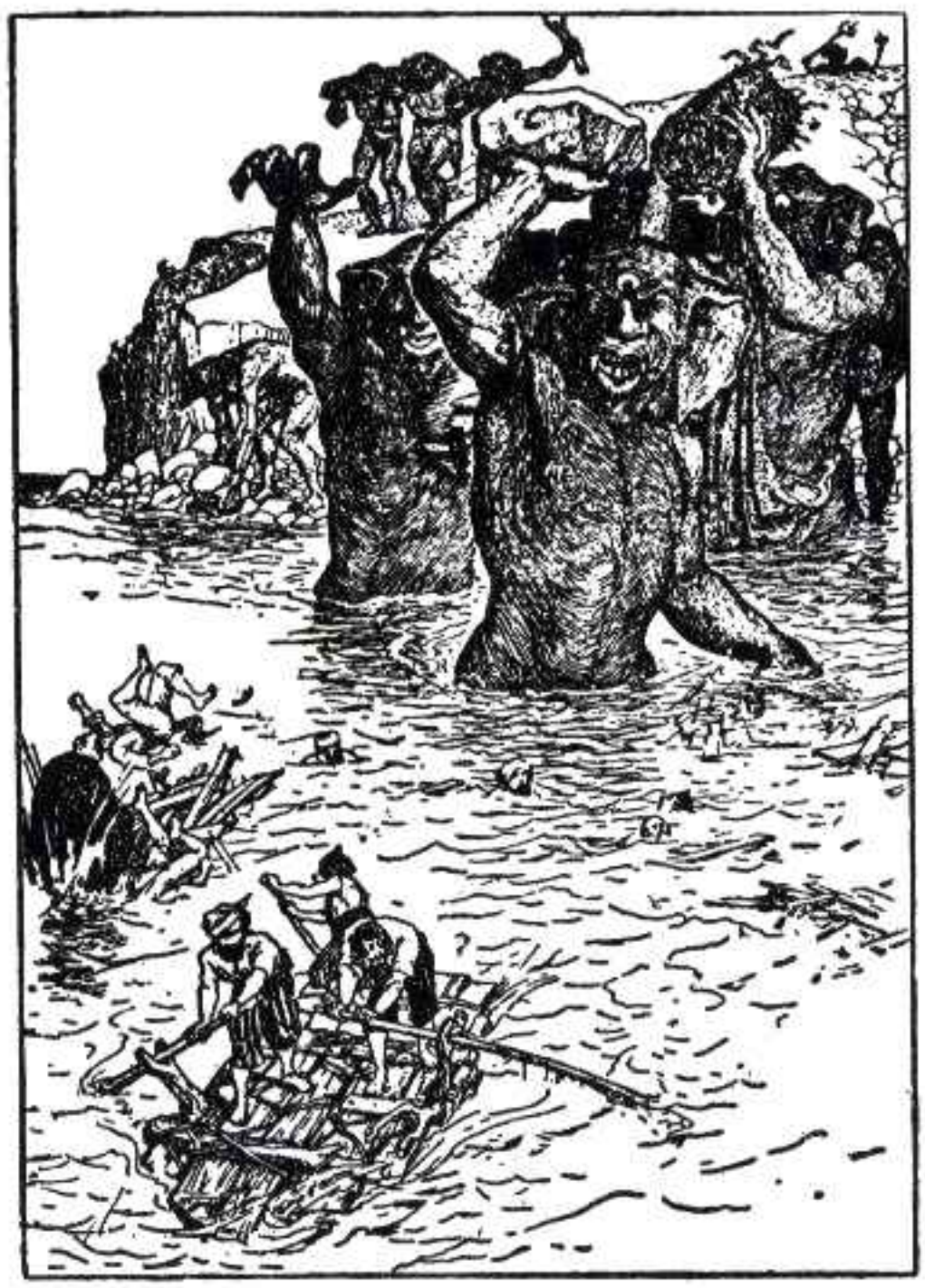

١٠ ــ ٱلْفِرَارُ مِنْ جَزِيرَةِ ٱلْعَمَالِقَةِ

وَبَعْدَ أَنْ نَجَوْنَا مِنْ شَرِّ أُولَئِكَ ٱلْعَمَالِقَةِ أَصْبَحْنَا تَحْتَ رَحْمَةِ ٱلْأَمْوَاجِ ٱلْهَائِجَةِ ــ طُولَ نَهَارِنَا وَلَيْلَتِنَا ــ حَتَّى إِذَا أَصْبَحَ ٱلصَّبَاحُ قَذَفَتْنَا ٱلْأَمْوَاجُ إِلَى شَاطِئِ جَزِيرَةٍ كَبِيرَةٍ ، فَفَرِحْنَا بِذَلِكَ وَأَكَلْنَا

مِنْ فَاكِهَتِهَا ٱلطَّيِّبَةِ وَشَرِبْنَا مِنْ مَائِهَا ٱلْعَذْبِ ، ثُمَّ جَلَسْنَا عَلَى شَاطِئِ ٱلْبَحْرِ فَرِحِينَ بِٱلنَّجَاةِ مِنْ أَرْضِ ٱلْعَمَالِقَةِ .

١١ — فِى فَمِ أَفْعَى

وَلَمَّا جَاءَ ٱللَّيْلُ نِمْنَا فَوْقَ شَجَرَةٍ عَالِيَةٍ وَٱسْتَيْقَظْنَا فَزِعِينَ فَرَأَيْنَا حَيَّةً هَائِلَةً قَدِ ٱلْتَقَمَتْ وَاحِداً مِنْ رَفِيقَىَّ ، فَسَمِعْنَا عِظَامَهُ تَتَكَسَّرُ فِى جَوْفِهَا وَهِىَ تَبْتَلِعُهُ فَٱشْتَدَّ خَوْفُنَا وَهَالَنَا ٱلْأَمْرُ وَقُلْنَا :

« لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْعَظِيمِ ، كُلَّمَا نَجَوْنَا مِنْ مُصِيبَةٍ وَقَعْنَا فِيمَا هُوَ شَرٌّ مِنْهَا » .

وَلَمَّا أَصْبَحَ ٱلصَّبَاحُ أَكَلْنَا وَشَرِبْنَا حَتَّى إِذَا جَاءَ ٱللَّيْلُ صَعِدْنَا إِلَى شَجَرَةٍ أُخْرَى فَنِمْتُ بِأَعْلَاهَا وَنَامَ رَفِيقِى قَرِيباً مِنِّى ، وَبَعْدَ قَلِيلٍ جَاءَتِ ٱلْحَيَّةُ فَٱلْتَقَمَتْ رَفِيقِى كَمَا ٱلْتَقَمَتْ صَاحِبَهُ بِٱلْأَمْسِ !

١٢ — كَيْفَ نَجَا ٱلسِّنْدِبَادُ مِنَ ٱلْأَفْعَى

فَمَكَثْتُ طُولَ ٱللَّيْلِ خَائِفاً حَتَّى إِذَا أَصْبَحَ ٱلصَّبَاحُ هَمَمْتُ أَنْ أُلْقِىَ بِنَفْسِى فِى ٱلْبَحْرِ فَمَنَعَنِى مِنْ ذَلِكَ حُبُّ ٱلْحَيَاةِ فَتَجَلَّدْتُ ،

وَلَمَّا اُقْتَرَبَ اُللَّيْلُ أَحْضَرْتُ أَلْوَاحاً مِنَ اُلْخَشَبِ وَشَدَدْتُ جِسْمِى إِلَيْهَا شَدًّا وَثِيقاً ، وَجَاءَتِ اُلْحَيَّةُ — كَعَادَتِهَا — تُحَاوِلُ أَنْ تَبْتَلِعَنِى كَمَا اُبْتَلَعَتْ رَفِيقَىَّ ، فَحَالَتِ اُلْأَلْوَاحُ اُلْمَشْدُودَةُ حَوْلِى دُونَ ذَلِكَ ، وَظَلَّتِ اُلْحَيَّةُ طُولَ اُللَّيْلِ تُحَاوِلُ أَنْ تَجِدَ مَنْفَذاً إِلَىَّ — مِنْ خِلَالِ اُلْأَلْوَاحِ — دُونَ أَنْ تَظْفَرَ بِطَائِلٍ ، فَلَمَّا بَدَا اُلصَّبَاحُ عَادَتْ مِنْ حَيْثُ أَتَتْ فَحَلَلْتُ اُلرِّبَاطَ وَخَرَجْتُ مِنْ بَيْنَ اُلْخُشُبِ وَأَنَا أَحْمَدُ اَللّٰهَ عَلَى اُلسَّلَامَةِ .

١٣ — اُلْأَمَلُ بَعْدَ اُلْيَأْسِ

وَجَلَسْتُ عَلَى شَاطِئِ اُلْبَحْرِ يَائِسًا مَهْمُوماً أُفَكِّرُ فِيمَا حَلَّ بِى مِنَ اُلْمَصَائِبِ ، فَلَمَحْتُ مَرْكَباً كَبِيراً عَلَى مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ ، فَلَمْ أَزَلْ أَصْرُخُ وَأَصِيحُ — مُشِيراً بِيَدِى مَرَّةً وَمُلَوِّحاً بِعِمَامَتِى مَرَّةً أُخْرَى — حَتَّى فَطِنَ إِلَىَّ بَعْضُ مَنْ بِالْمَرْكَبِ ، فَاقْتَرَبُوا مِنَ اُلْجَزِيرَةِ وَرَسَوْا عَلَى شَاطِئِهَا ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِمْ فَرَدُّوا عَلَىَّ السَّلَامَ ، وَفَرِحْتُ بِلِقَائِهِمْ فَرَحًا عَظِيماً ، ثُمَّ حَمَلُونِى مَعَهُمْ وَسَأَلُونِى عَنْ أَمْرِى فَقَصَصْتُ عَلَيْهِمْ كُلَّ مَا حَدَثَ لِى ، فَعَجِبُوا مِنْ ذَلِكَ أَشَدَّ اُلْعَجَبِ وَأَطْعَمُونِى وَسَقَوْنِى وَأَكْرَمُونِى أَحْسَنَ إِكْرَامٍ .

١٤ — رُبَّانُ السَّفِينَةِ

وَلَمْ يَزَلِ ٱلْمَرْكَبُ سَائِراً بِنَا حَتَّى بَلَغْنَا بَلَداً كَبِيراً، فَقَالَ لِى ٱلرُّبَّانُ : « إِنَّ عِنْدِى بِضَاعَةً لِرَجُلٍ ٱسْمُهُ « السِّنْدِبَادُ ٱلْبَحْرِىُّ » كَانَ مَعَنَا ثُمَّ نَسِيناَه فِى جَزِيرَةٍ مَرَرْنَا بِهَا »

فَتَأَمَّلْتُ الرُّبَّانَ فَعَرَفْتُهُ وَأَخْبَرْتُهُ أَنِّى أَنَا « السِّنْدِبَادُ ٱلْبَحْرِىُّ » فَلَمْ يُصَدِّقْنِى أَوَّلَ ٱلْأَمْرِ ، وَٱجْتَمَعَ التُّجَّارُ حَوْلِى وَكَانَ مِنْ بَيْنِهِم التَّاجِرُ الَّذِى تَعَلَّقْتُ بِذَبِيحَتِهِ — فِى رِحْلَتِى السَّابِقَةِ الَّتِى قَصَصْتُهَا عَلَيْكُمْ — فَلَمْ يَكَدْ يُنْعِمُ النَّظَرَ فِىَّ حَتَّى عَرَفَنِى وَقَصَّ عَلَيْهِمْ مَا حَدَثَ لِى مَعَهُ ، فَحَدَّقَ الرُّبَّانُ نَظَرَهُ فِىَّ فَعَرَفَنِى وَتَحَقَّقَ صِدْقَ قَوْلِى ، فَعَانَقَنِى فَرِحاً مَسْرُوراً .

١٥ — فِى بَغْـــدَادَ

وَمَا زِلْنَا نَنْتَقِلُ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ وَمِنْ جَزِيرَةٍ إِلَى جَزِيرَةٍ — وَتِجَارَتُنَا رَابِحَةٌ — حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى «ٱلْبَصْرَةِ» ثُمَّ سَافَرْتُ مِنْهَا إِلَى « بَغْدَادَ » وَمَعِى أَمْوَالٌ لاَ تُحْصَى ، وَأَقْبَلَ عَلَىَّ أَهْلِى وَأَصْحَابِى يُهَنِّئُونَنِى بِرُجُوعِى سَالِماً وَقَدْ فَرِحُوا بِى فَرَحاً لاَ يُوصَفُ .

وَلَمَّا ٱنْتَهَى « السِّنْدِبَادُ » مِنْ كَلاَمِهِ أَمَرَ لِلْحَمَّالِ بِمِائَةِ دِينَارٍ، فَدَعَا لَهُ وَخَرَجَ مَعَ ٱلْحَاضِرِينَ ، وَلَمَّا حَضَرُوا فِى ٱلْيَوْمِ التَّالِى بَدَأَ « السِّنْدِبَادُ » يَقُصُّ عَلَيْهِمْ رِحْلَتَهُ الرَّابِعَةَ فَقَالَ .

الرحلة الرابعة

بين جماجم الموتى

١ — كَيْفَ تَحَطَّمَ ٱلْمَرْكَبُ

بَقِيتُ فِى «بَغْدَادَ» هَادِئَ ٱلْبَالِ مُنْغَمِسًا فِى ٱللَّهْوِ وَٱلتَّرَفِ مُدَّةً مِنَ ٱلزَّمَنِ نَسِيتُ فِيهَا مَا قَاسَيْتُهُ مِنَ ٱلشَّدَائِدِ فِى أَسْفَارِى ٱلسَّابِقَةِ وَتَطَلَّعَتْ نَفْسِى لِلسَّفَرِ — مَرَّةً أُخْرَى — طَمَعاً فِيمَا يَجُرُّهُ مِنَ ٱلْكَسْبِ.

* * *

فَلَمْ أَتَرَدَّدْ فِى إِمْضَاءِ هَذِهِ ٱلْعَزِيمَةِ، وَٱشْتَرَيْتُ بِضَاعَةً وَحُمُولاً كَثِيرَةً، وَسَافَرْتُ مِنْ مَدِينَةِ «بَغْدَادَ» إِلَى مَدِينَةِ «ٱلْبَصْرَةِ» حَيْثُ ٱسْتَأْجَرْتُ أَنَا وَجَمَاعَةٌ مِنَ ٱلتُّجَّارِ مَرْكَباً شِرَاعِيًّا كَبِيراً سَارَ بِنَا أَيَّاماً وَلَيَالِىَ، وَكَانَتِ ٱلرِّيحُ طَيِّبَةً، وَٱلْأُمُورُ عَلَى مَا يُرَامُ، وَلَمْ نَزَلْ نَتَّجِرُ وَنَبِيعُ وَنَشْتَرِى فِى كُلِّ مَكَانٍ حَلَلْنَا بِهِ حَتَّى هَبَّتْ عَلَيْنَا عَاصِفَةٌ شَدِيدَةٌ حَطَّمَتِ ٱلْمَرْكَبَ وَمَزَّقَتْ شِرَاعَهُ تَمْزِيقاً.

فَغَرِقَ كُلُّ مَا مَعَنَا مِنَ ٱلْبَضَائِعِ كَمَا غَرِقَ كَثِيرٌ مِنَ ٱلْمُسَافِرِينَ، وَبَقِيتُ أَنَا وَجَمَاعَةٌ قَلِيلَةٌ مِنَ ٱلتُّجَّارِ سَابِحِينَ فِى ٱلْبَحْرِ نِصْفَ نَهَارٍ،

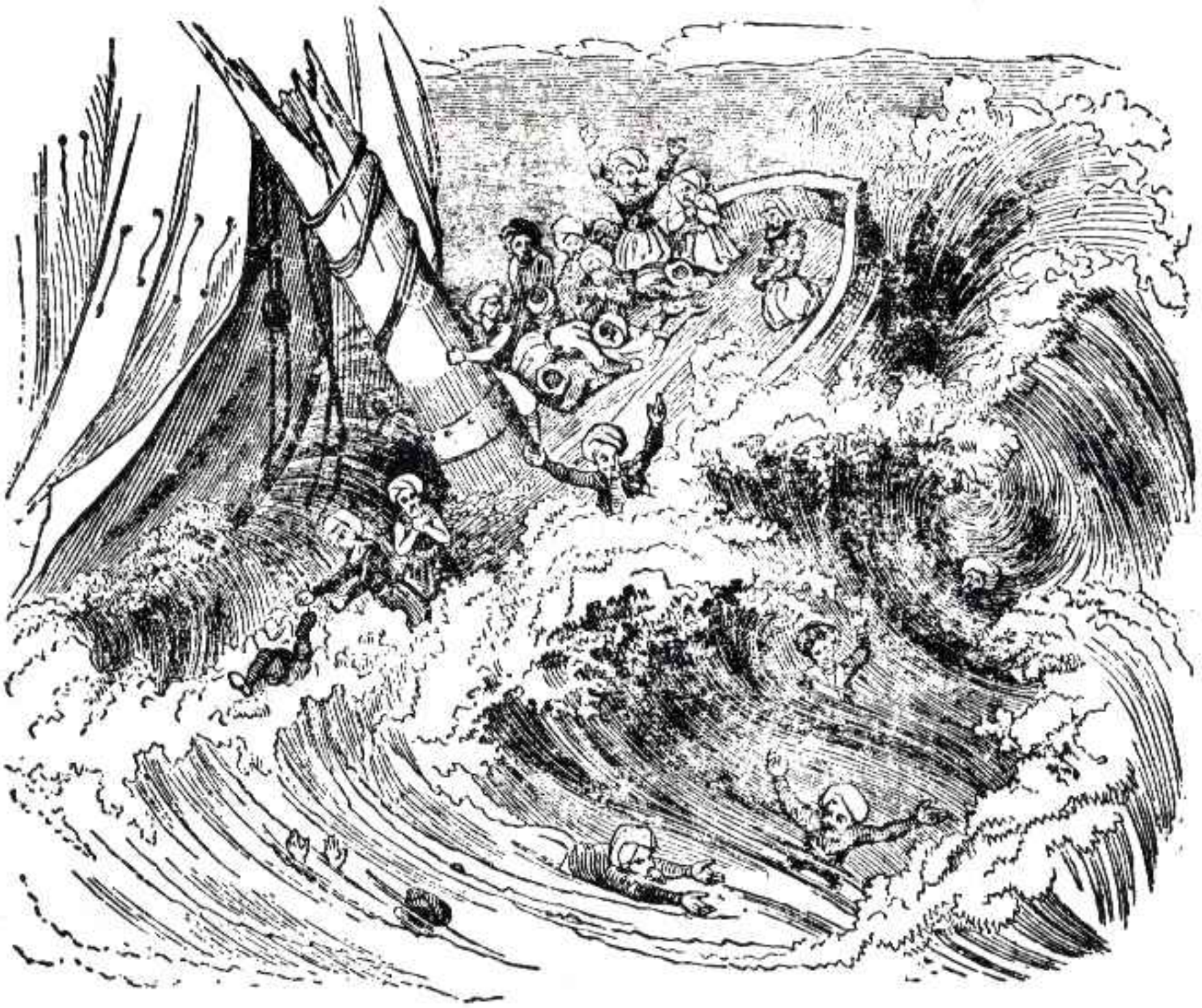

ثُمَّ ظَفِرْنَا بِلوْحٍ مِنَ ٱلْخَشَبِ فَرَكِبْنَاهُ، وَلَمْ يَزَلْ سَائِراً بِنَا بَعْدَ أَنْ

هَدَأَتِ ٱلْعَاصِفَةُ وَطَابَتِ ٱلرِّيح يَوْماً وَلَيْلَةً، ثُمَّ قَذَفَتْنَا ٱلْأَمْوَاجُ
إِلَى شَاطِىءِ جَزِيرَةٍ وَنَحْنُ كَالْمَوْتَى مِمَّا كَابَدْنَاهُ مِنَ ٱلْمَشَقَّةِ وَٱلْعَنَاءِ.

٢ – جَزِيرَةُ ٱلْغِيلَانِ

وَمَشَيْنَا فِي الْجَزِيرَةِ فَوَجَدْنَا كَثِيراً مِنَ النَّبَاتِ وَالْفَاكِهَةِ وَالْعُشْبِ وَٱلْمَاءِ ، فَأَكَلْنَا وَشَرِبْنَا ثُمَّ نِمْنَا طُولَ اللَّيْلِ ، حَتَّى إِذَا طَلَعَ النَّهَارُ اسْتَأْنَفْنَا السَّيْرَ فِي ٱلْجَزِيرَةِ فَلَاحَ لَنَا قَصْرٌ عَالٍ فَقَصَدْنَا إِلَيْهِ ، وَلَمَّا بَلَغْنَاهُ خَرَجَ عَلَيْنَا نَفَرٌ مِنَ ٱلْمُتَوَحِّشِينَ وَهُمْ حُفَاةُ ٱلْأَقْدَامِ عُرَاةُ ٱلْأَجْسَامِ وَمَا كَادُوا يُبْصِرُونَنَا حَتَّى قَبَضُوا عَلَيْنَا ، وَسَارُوا بِنَا إِلَى مَلِكِهِمْ فَأَمَرَنَا بِالْجُلُوسِ فَأَطَعْنَا ، ثُمَّ أَحْضَرَ طَعَامًا فَأَكَلَ مِنْهُ أَصْحَابِي وَعَافَتْهُ نَفْسِي فَلَمْ آكُلْ مِنْهُ شَيْئاً — وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ حُسْنِ حَظِّي — فَإِنَّ أَصْحَابِي لَمْ يَنْتَهُوا مِنْ أَكْلَتِهِمْ هَذِهِ حَتَّى ظَهَرَتْ عَلَيْهِمْ أَمَارَاتُ ٱلْخَبَلِ وَالْجُنُونِ ، فَأَسِفْتُ لِذَلِكَ أَشَدَّ ٱلْأَسَفِ وَأَدْرَكْتُ أَنَّ مَا أَكَلُوهُ مِنَ الطَّعَامِ هُوَ سَبَبُ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الذُّهُولِ .

وَكَانَتْ هَذِهِ عَادَةَ ٱلْغِيلَانِ مَعَ كُلِّ مَنْ يَرْمِيهِمْ سُوءُ ٱلْحَظِّ وَنَكَدُ الطَّالِعِ إِلَى هَذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ ، إِذْ يُقَدِّمُونَ إِلَيْهِمْ هَذَا الطَّعَامَ الْعَجِيبَ فَيُقْبِلُونَ عَلَيْهِ بِشَرَهٍ وَيُصِيبُهُمُ الذُّهُولُ ، وَلَا يَزَالُونَ يَأْكُلُونَ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ حَتَّى يَسْمَنُوا فَيَأْكُلَهُمُ ٱلْغِيلَانُ ، وَلَمَّا تَكَشَّفَتْ لِي هَذِهِ ٱلْحَقِيقَةُ فَزِعْتُ فَزَعاً شَدِيداً وَٱمْتَنَعْتُ عَنْ أَكْلِ طَعَامِهِمْ مُكْتَفِيًا بِمَا كُنْتُ أَقْتَاتُهُ مِنَ ٱلْأَعْشَابِ ، فَأَصَابَنِي هُزَالٌ شَدِيدٌ جَعَلَهُمْ

لَا يَلْتَفِتُونَ إِلَىَّ وَلَا يُعْنَوْنَ بِمُرَاقَبَتِى ، وَكَانَ يَخْرُجُ بِأَصْحَابِى
- كُلَّ يَوْمٍ - وَاحِدٌ مِنْ أُولَئِكَ ٱلْغِيلَانِ يَرْعَاهُمْ كَمَا تُرْعَى الْغَنَمُ .

٣ — هَرَبُ السِّنْدِبَادِ مِنَ الْغِيلَانِ

وَسَنَحَتْ لِى الْفُرْصَةُ — ذَاتَ يَوْمٍ — فَهَرَبْتُ مِنَ ٱلرَّاعِى ،

وَمَا زِلْتُ اجْرِى — بِكُلِّ قُوَّتِى — حَتَّى أَقْبَلَ ٱللَّيْلُ ، فَنِمْتُ قَلِيلًا
ثُمَّ أَصَابَنِى ٱلْأَرَقُ لِشِدَّةِ مَا لَحِقَنِى مِنَ ٱلْخَوْفِ ، فَاسْتَأْنَفْتُ السَّيْرَ
وَمَا زِلْتُ سَائِرًا سَبْعَةَ أَيَّامٍ وَأَنَا آكُلُ مِمَّا أَلْقَاهُ فِى طَرِيقِى مِنَ
النَّارَجِيلِ « الْجَوْزِ ٱلْهِنْدِىِّ » — الَّذِى كَانَ غِذَائِى وَشَرَابِى مَعًا —
وَكُنْتُ أَسِيرُ بِالنَّهَارِ وَأَنَامُ بِاللَّيْلِ

٤ – عَلَى شَاطِئِ ٱلْبَحْرِ

وَلَمَّا بَلَغْتُ شَاطِئَ ٱلْبَحْرِ رَأَيْتُ جَمَاعَةً يَجْمَعُونَ حَبَّ ٱلْفُلْفُلِ ، وَمَا كَادَ يَقَعُ بَصَرُهُمْ عَلَيَّ حَتَّى بَدَءُونِى بِالتَّحِيَّةِ وَسَأَلُونِى – بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ – : « مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ ؟ » .

فَقَصَصْتُ عَلَيْهِمْ مَا حَدَثَ لِى مَعَ ٱلْغِيلَانِ فَهَنَّأُونِى بِالسَّلَامَةِ وَقَدَّمُوا لِى طَعَاماً شَهِيًّا فَأَكَلْتُ حَتَّى شَبِعْتُ .

٥ – فِى حَضْرَةِ ٱلْمَلِكِ

وَلَمَّا ذَهَبُوا إِلَى مَلِكِهِمْ أَخْبَرْتُهُ بِقِصَّتِى فَعَجِبَ أَشَدَّ ٱلْعَجَبِ ، وَأَكْرَمَنِى وَآوَانِى عِنْدَهُ ، وَخَرَجْتُ – فِى ٱلْيَوْمِ التَّالِى – إِلَى ٱلْمَدِينَةِ ، فَرَأَيْتُهَا مَدِينَةً عَظِيمَةً مُزْدَحَمَةَ ٱلْأَسْوَاقِ .

٦ – سُرُوجُ ٱلْخَيْلِ

وَلَكِنَّنِى رَأَيْتُ أَهْلَهَا يَرْكَبُونَ ٱلْخَيْلَ بِلَا سَرْجٍ وَلَا لِجَامٍ – لَا فَرْقَ فِى ذَلِكَ بَيْنَ كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ – فَذَهَبْتُ إِلَى ٱلْمَلِكِ وَأَبْدَيْتُ لَهُ دَهْشَتِى مِمَّا رَأَيْتُ ، فَقَالَ لِى : « إِنَّكَ تُحَدِّثُنِى عَنْ شَيْءٍ لَا أَعْرِفُهُ وَلَمْ أَرَهُ فِى حَيَاتِى قَطُّ » وَطَلَبَ إِلَيَّ أَنْ أَصْنَعَ لِفَرَسِهِ سَرْجاً وَلِجَاماً فَجَمَعْتُ بَعْضَ ٱلْعُمَّالِ ٱلْأَذْكِيَاءِ ، وَرَسَمْتُ لِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَا يُلَائِمُ حِرْفَتَهُ مِنَ ٱلْعَمَلِ حَتَّى تَمَّ السَّرْجُ فَحَلَّيْتُهُ بِطِرَازٍ ذَهَبِيٍّ

نَفِيسٍ ، وَأَرْشَدْتُ ٱلْحَدَّادَ إِلَى طَرِيقَةِ صُنْعِ الرِّكَابِ وَاللِّجَامِ فَلَمَّا أَتَمَّ صُنْعَهُمَا ذَهَبْتُ إِلَى ٱلْمَلِكِ — وَمَعِي سَرْجٌ وَلِجَامٌ وَرِكَابٌ — وَذَكَرْتُ لَهُ فَائِدَةَ كُلٍّ مِنْهَا فَأَمَرَ بِإِحْضَارِ فَرَسِهِ فَأَسْرَجْتُهَا وَأَلْجَمْتُهَا ، ثُمَّ رَكِبَهَا ٱلْمَلِكُ فَسُرَّ مِنْ ذَلِكَ سُرُوراً عَظِيماً وَشَكَرَ لِي هَذِهِ ٱلْهَدِيَّةَ ٱلنَّفِيسَةَ ، وَكَافَأَنِي عَلَيْهَا أَحْسَنَ مُكَافَأَةٍ .

ثُمَّ طَلَبَ إِلَيَّ أَعْيَانُ ٱلدَّوْلَةِ أَنْ أَصْنَعَ لَهُمْ مِثْلَ ذَلِكَ فَأَجَبْتُهُمْ إِلَى مَا طَلَبُوا ، فَغَمَرُونِي بِهَدَايَاهُمُ النَّفِيسَةِ حَتَّى أَصْبَحْتُ مِنَ ٱلْأَغْنِيَاءِ

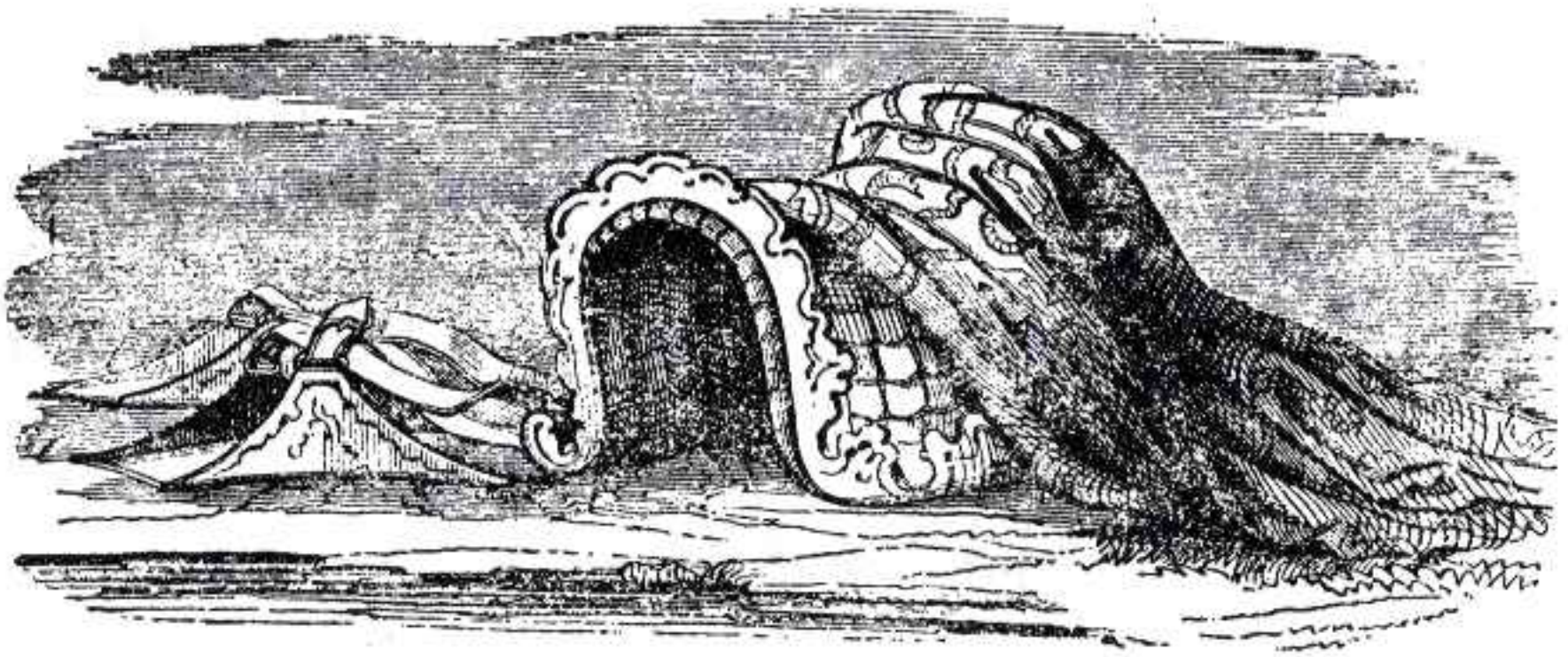

٧ — زَوَاجُ السِّنْدِبَادِ

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ قَالَ لِي ٱلْمَلِكُ : « إِنَّنِي وَجَمِيعَ حَاشِيَتِي نُحِبُّكَ يَا سِنْدِبَادُ حُبًّا لا مَزِيدَ عَلَيْهِ ، وَنُرِيدُ أَنْ تَبْقَى مَعَنَا طُولَ عُمْرِكَ وَلاَ بُدَّ مِنْ تَزْوِيجِكَ حَتَّى لاَ تُفَارِقَنَا ، وَقَدْ تَخَيَّرْتُ لَكَ فَتَاةً جَمِيلَةً غَنِيَّةً لِتَتَزَوَّجَ مِنْهَا ، فَمَاذَا أَنْتَ قَائِلٌ ؟ »

فَلَمْ أَسْتَطِعْ مُخَالَفَةَ أَمْرِهِ ، وَرَضِيتُ بِالزَّوَاجِ مِنْ تِلْكَ ٱلْفَتَاةِ — وَكَانَتْ ذَاتَ جَمَالٍ وَأَدَبٍ — فَعِشْنَا مَعاً عَلَى أَحْسَنِ حَالٍ وَأَهْدَإِ بَالٍ ، وَلَـكِنَّنِي كُنْتُ — فِي كُلِّ يَوْمٍ — أَتَرَقَّبُ ٱلْفُرَصَ لِلسَّفَرِ إِلَى بَلَدِي فِي أَوَّلِ سَفِينَةٍ تَمُرُّ بِهَذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ .

٨ — دَفْنُ ٱلْأَحْيَاءِ مَعَ ٱلْأَمْوَاتِ

وَحَدَثَ — فِي بَعْضِ ٱلْأَيَّامِ — مَا لَمْ أَكُنْ أَتَوَقَّعُهُ ، فَقَدْ مَاتَتْ زَوْجَةُ جَارِي وَكَانَ مِنْ أَحَبِّ ٱلْأَصْدِقَاءِ إِلَيَّ ، فَلَمَّا ذَهَبْتُ أُعَزِّيهِ وَجَدْتُهُ فِي حَالٍ لَا تُوصَفُ — مِنْ شِدَّةِ ٱلْجَزَعِ وَٱلْغَمِّ — فَقُلْتُ لَهُ : « تَشَجَّعْ يَا أَخِي وَلَا تَحْزَنْ » .

وَدَعَوْتُ لَهُ بِطُولِ ٱلْبَقَاءِ ، فَقَالَ لِي مُتَحَسِّراً : « كَيْفَ يَطُولُ بَقَائِي وَلَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَ ٱلْهَلَاكِ إِلَّا سَاعَةٌ وَاحِدَةٌ »

فَقُلْتُ لَهُ — : « لَا بُدَّ مِنَ الصَّبْرِ ، وَسَيُطِيلُ اللهُ عُمْرَكَ وَتَنْسَى مُصَابَكَ هَذَا ، وَيَكُونُ آخِرَ مَكْرُوهٍ يَلْحَقُكَ ! »

فَقَالَ لِي — : « أَمَّا طُولُ ٱلْعُمْرِ فَلَيْسَ لِي فِيهِ مَطْمَعٌ ، لِأَنَّنِي سَأُدْفَنُ مَعَ زَوْجَتِي حَيًّا — بَعْدَ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ — وَقَدْ وَدَّعْتُ أَهْلِي وَأَصْدِقَائِي جَمِيعًا ! »

فَدَهِشْتُ مِنْ قَوْلِهِ أَشَدَّ دَهْشَةٍ ، وَسَأَلْتُهُ مُتَعَجِّباً :

« وَكَيْفَ تُدْفَنُ مَعَ زَوْجَتِكَ وَأَنْتَ حَيٌّ ؟ » ، فَقَالَ لِى :

« إِنَّ شَرِيعَةَ بِلَادِنَا تُحَتِّمُ عَلَى كُلِّ رَجُلٍ تَمُوتُ زَوْجَتُهُ أَنْ يُدْفَنَ مَعَهَا حَيًّا ، وَعَلَى كُلِّ اُمْرَأَةٍ يَمُوتُ زَوْجُهَا أَنْ تُدْفَنَ مَعَهُ كَذَلِكَ ؟ »

فَزَادَتْ دَهْشَتِى ، وَسَأَلْتُهُ :

« أَلَيْسَ فِى قُدْرَةِ أَحَدٍ أَنْ يُغَيِّرَ هَذِهِ الشَّرِيعَةَ القَاسِيَةَ ؟ »

فَأَجَابَنِى يَائِسًا — : « ذَلِكَ مُحَالٌ ، فَإِنَّ هَذَا الْقَانُونَ يَسْرِى عَلَى أَهْلِ اُلْجَزِيرَةِ كُلِّهِمْ ، مِنَ اُلْمَلِكِ إِلَى أَصْغَرِ فَرْدٍ فِى الرَّعِيَّةِ . »

وَلَمْ يَكَدْ يَفْرُغُ مِنْ كَلَامِهِ حَتَّى اجْتَمَعَ حَوْلَهُ أَهْلُهُ وَعَارِفُوهُ ، فَوَضَعُوا زَوْجَتَهُ فِى النَّعْشِ وَوَضَعُوا مَعَهَا كُلَّ حُلَاهَا ، وَسَارُوا بِهِمَا إِلَى جُبٍّ بَعِيدٍ عَنِ اُلْمَدِينَةِ ، وَكَشَفُوا غِطَاءَهُ — وَهُوَ صَخْرَةٌ كَبِيرَةٌ — وَأَلْقَوْا بِالزَّوْجَةِ فِيهِ ، ثُمَّ رَبَطُوا زَوْجَهَا بِحَبَالٍ طَوِيلَةٍ وَوَدَّعُوهُ ، وَوَضَعُوا — إِلى جَانِبِهِ — قُلَّةَ مَاءٍ وَسَبْعَةَ أَرْغِفَةٍ ، وَلَمَّا أَنْزَلُوهُ فِى الْجُبِّ أَعَادُوا غِطَاءَهُ وَرَجَعُوا مِنْ حَيْثُ أَتَوْا ؟

٩ — اَلشَّكْوَى إِلَى اَلْمَلِكِ

وَلَيْسَ فِى قُدْرَتِى أَنْ أَصِفَ لَكُمْ مَا لَحِقَنِى مِنَ الْجَزَعِ وَاَلْخَوْفِ مِمَّا رَأَيْتُ ، وَلَقَدْ أَسْرَعْتُ بِالذَّهَابِ إِلَى مَلِكِ اُلْجَزِيرَةِ فَشَكَوْتُ لَهُ هَذِهِ الْعَادَةَ السَّيِّئَةَ الَّتِى لَمْ أَرَهَا فِى غَيْرِ هَذِهِ اُلْجَزِيرَةِ ، فَقَالَ لِى مُبْتَسِمًا :

« هَذِهِ هِيَ شَرِيعَةُ بِلَادِنَا ، وَهِيَ سَارِيَةٌ عَلَيَّ وَعَلَى جَمِيعِ رَعِيَّتِي فَإِذَا مَاتَتِ ٱلْمَلِكَةُ قَبْلِي دُفِنْتُ مَعَهَا ، وَإِذَا مِتُّ قَبْلَهَا دُفِنَتْ مَعِي ؟ »

فَزَادَ عَجَبِي مِنْ ذَلِكَ وَقُلْتُ لَهُ — : « وَهَلْ يَسْرِي هَذَا ٱلْقَانُونُ ٱلْقَاسِي عَلَى ٱلْغُرَبَاءِ أَيْضًا ؟ » فَأَجَابَنِي — : « نَعَمْ ، فَهُوَ يَسْرِي عَلَى كُلِّ مَنْ تَزَوَّجَ فِي هَذِهِ ٱلْمَدِينَةِ أَيًّا كَانَ جِنْسُهُ ! »

فَرَجَعْتُ مِنْ عِنْدِهِ مَهْمُوماً ، وَصِرْتُ أَجْزَعُ كُلَّمَا لَحِقَ زَوْجَتِي أَقَلُّ أَذًى ، وَأَخْشَى عَلَيْهَا كُلَّمَا مَرِضَتْ ، وَكُنْتُ إِذَا جُرِحَتْ إِصْبَعُهَا بِتُّ طُولَ ٱللَّيْلِ سَاهِراً خَشْيَةَ أَنْ تَمُوتَ .

١٠ — وَفَاةُ زَوْجَةِ السِّنْدِبَادِ

وَكَانَ مَا خِفْتُ أَنْ يَكُونَ ، فَلَمْ يَمْضِ عَلَى زَوْجَتِي زَمَنٌ يَسِيرٌ حَتَّى مَرِضَتْ ثُمَّ مَاتَتْ ، فَوَقَعَ عَلَيَّ هَذَا ٱلْحَادِثُ وُقُوعَ ٱلصَّاعِقَةِ ، وَذَكَرْتُ أَنَّ كُلَّ مَوْتَةٍ تَعَرَّضْتُ لَهَا وَنَجَوْتُ مِنْهَا فِي رِحْلَاتِي ٱلسَّابِقَةِ كَانَتْ أَهْوَنَ عَلَى نَفْسِي مِنْ أَنْ أُدْفَنَ حَيًّا .

وَجَاؤُا فَكَفَّنُوا زَوْجَتِي فِي أَبْهَى أَثْوَابِهَا وَوَضَعُوا مَعَهَا كُلَّ حُلِيِّهَا ، وَسِرْتُ خَلْفَهَا وَمَعِي كِبَارُ ٱلدَّوْلَةِ وَأَعْيَانُ ٱلْمَدِينَةِ يَتَقَدَّمُهُمْ ٱلْمَلِكُ نَفْسُهُ حَتَّى بَلَغْنَا ذَلِكَ ٱلْجُبَّ ٱلْمَشْئُومَ ، فَكَشَفُوا غِطَاءَهُ

وَأَنْزَلُوا زَوْجَتِي فِيهِ، وَأَقْبَلَ عَلَيَّ ٱلْمَلِكُ وَٱلْأَعْيَانُ يُوَدِّعُونَنِي، فَصَرَخْتُ بَاكِياً مِنْ هَوْلِ مَا أَنَا قَادِمٌ عَلَيْهِ، وَتَوَسَّلْتُ إِلَيْهِمْ جَمِيعاً — طَمَعاً فِي أَنْ يُطْلِقُوا سَرَاحِي — فَلَمْ يُصْغِ أَحَدٌ إِلَى كَلَامِي.

١١ — بَيْنَ جَمَاجِمِ ٱلْمَوْتَى

ثُمَّ أَنْزَلُونِي إِلَى ٱلْجُبِّ قَسْراً وَأَنْزَلُوا مَعِي قُلَّةَ مَاءٍ وَسَبْعَةَ أَرْغِفَةٍ، وَأَعَادُوا غِطَاءَ ٱلْجُبِّ ثَانِيَةً وَٱنْصَرَفُوا.

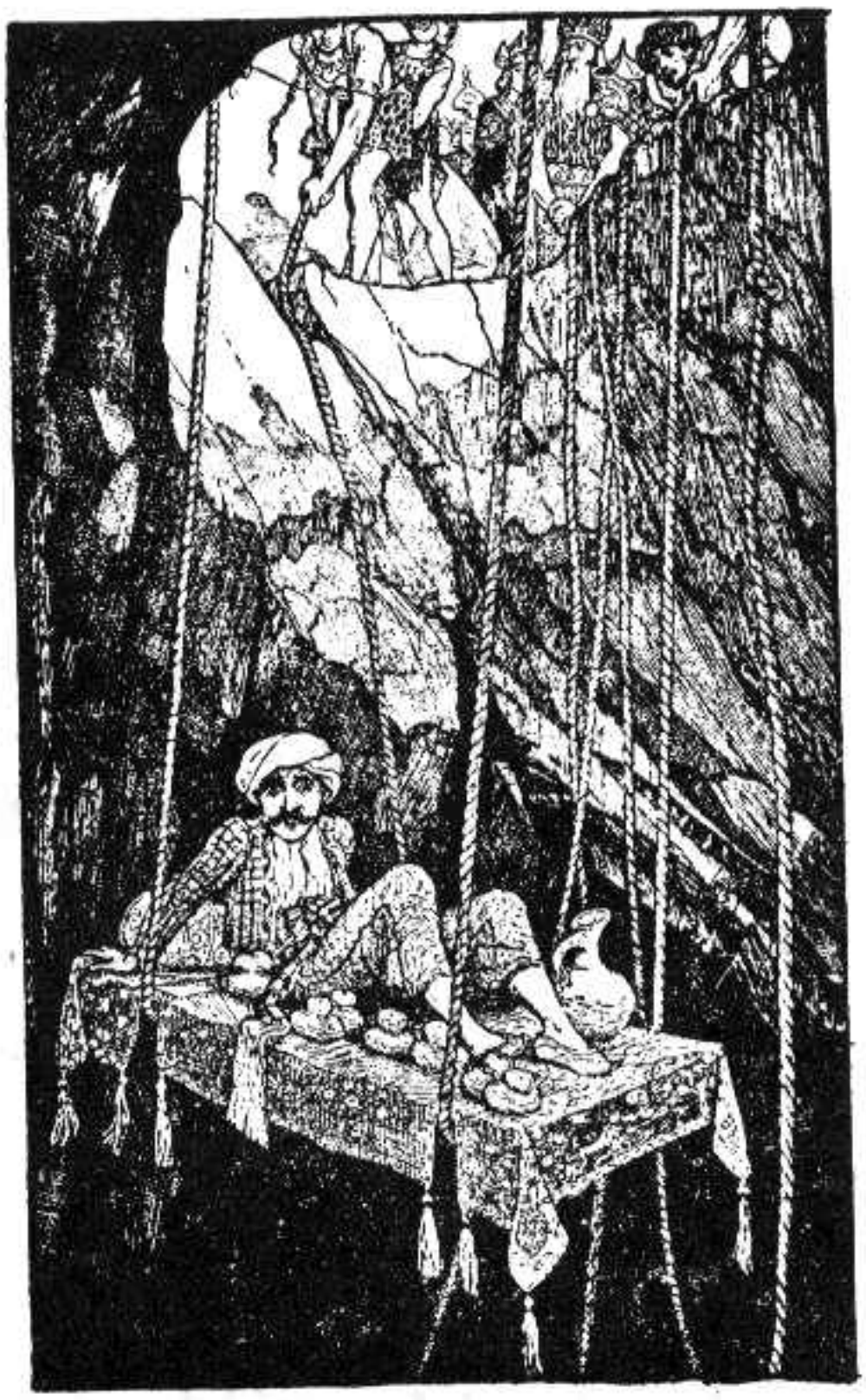

وَبَقِيتُ وَحْدِي فِي ظُلْمَةِ هَذَا ٱلْجُبِّ — بَيْنَ جَمَاجِمِ ٱلْمَوْتَى — مُتَرَقِّباً سَاعَتِي ٱلْأَخِيرَةَ بَيْنَ يَوْمٍ وَآخَرَ.

* * *

وَلَاحَ لِي فِي تِلْكَ ٱلْحُفْرَةِ ٱلْمُظْلِمَةِ بَصِيصٌ ضَئِيلٌ مِنَ ٱلنُّورِ فَرَأَيْتُ حَوْلِي أَكْدَاساً مِنْ عِظَامِ ٱلْمَوْتَى وَجَمَاجِمِهِمْ، فَازْدَادَ رُعْبِي وَأَخَذْتُ أَلُومُ نَفْسِي عَلَى هَذِهِ ٱلرِّحْلَةِ ٱلْمَشْئُومَةِ وَنَدِمْتُ عَلَى

مَا فَعَلْتُ حَيْثُ لاَ يَنْفَعُ النَّدَمُ ، ثُمَّ رَضِيتُ بِقَضَاءِ اللهِ وَجَعَلْتُ أَقْتَصِدُ فِى الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ حَتَّى لاَ يَنْفَدَ مَا مَعِى مِنَ الطَّعَامِ فِى زَمَنٍ قَلِيلٍ ، وَلَكِنَّنِى — بَعْدَ بِضْعَةِ أَيَّامٍ — اسْتَنْفَدْتُ زَادِى كُلَّهُ وَأَيْقَنْتُ حِينَئِذٍ بِالْهَلاَكِ . وَإِنِّى لَكَذَلِكَ إِذْ كُشِفَ

غِطَاءُ الْجُبِّ وَنَزَلَ فِيهِ رَجُلٌ مَيِّتٌ وَزَوْجَتُهُ — وَمَعَهَا الْأَرْغِفَةُ السَّبْعَةُ وَقُلَّةُ الْمَاءِ — ثُمَّ أَعَادُوا غِطَاءَ الْجُبِّ ثَانِيَةً ، وَمَا كَادَتِ الْمَرْأَةُ تَسْتَقِرُّ فِى الْجُبِّ بَعْدَ أَنْ أَعَادُوا غِطَاءَهُ ثَانِيَةً حَتَّى مَاتَتْ مِنَ الْخَوْفِ وَالرُّعْبِ ، فَأَخَذْتُ مَا مَعَهَا مِنَ الزَّادِ وَالْمَاءِ فَكُنْتُ آكُلُ مِنْهُ وَأَشْرَبُ مُقْتَصِداً أَيَّاماً وَلَيَالِىَ ، وَبَقِيتُ أَتَرَقَّبُ

كُلَّ مَنْ يَدْفِنُونَهُ مِنَ ٱلْأَحْيَاءِ الَّذِينَ كَانُوا يَمُوتُونَ مِنَ الرُّعْبِ فَآخُذُ زَادَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيَّ ٱلزَّمَنُ وَسَئِمْتُ ٱلْحَيَاةَ فِي هَـٰذَا ٱلْجُبِّ ٱلْمُظْلِمِ .

١٢ — النَّجَاةُ مِنَ ٱلْجُبِّ

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ رَأَيْتُ — لِحُسْنِ حَظِّي — شَبَحًا يَدْنُو مِنِّي فَلَمْ أَسْتَطِعْ تَمْيِيزَهُ لِظُلْمَةِ ٱلْمَكَانِ ، وَلَـٰكِنَّنِي أَحْسَسْتُ أَنْفَاسَهُ عَنْ قُرْبٍ فَقُمْتُ خَائِفاً مَذْعُوراً ، فَفَزِعَ مِنِّي ذَلِكَ الشَّبَحُ وَعَادَ مِنْ حَيْثُ أَتَى ، فَتَبِعْتُهُ لِأَعْرِفَ مِنْ أَيْنَ يَخْرُجُ ، فَرَأَيْتُهُ يَتَسَلَّلُ مِنْ مَنْفَذٍ صَغِيرٍ فِي آخِرِ ٱلْحُفْرَةِ ، فَلَاحَ لِي أَمَلٌ كَبِيرٌ فِي النَّجَاةِ ، وَبَذَلْتُ جُهْدِي فِي تَوْسِيعِ هَـٰذَا ٱلْمَنْفَذِ حَتَّى تَمَّ لِي ذَلِكَ ، فَخَرَجْتُ مِنْهُ ، فَرَأَيْتُنِي عَلَى شَاطِئِ ٱلْبَحْرِ فَفَرِحْتُ بِذَلِكَ فَرَحاً لَا يُوصَفُ ، ثُمَّ عُدْتُ إِلَى ٱلْجُبِّ فَجَمَعْتُ كُلَّ مَا قَدَرْتُ عَلَى جَمْعِهِ مِنَ ٱلْحُلِيِّ وَٱلْجَوَاهِرِ ٱلنَّفِيسَةِ الَّتِي دَفَنُوهَا مَعَ ٱلْمَوْتَى ، وَوَضَعْتُهَا فِي أَثْوَابِهِمْ وَأَكْفَانِهِمْ ، وَبَقِيتُ أَذْهَبُ إِلَى ٱلْجُبِّ كُلَّ يَوْمٍ فَأَحْمِلُ مِنْهُ مَا أَسْتَطِيعُ حَمْلَهُ مِنْ كُنُوزٍ وَنَفَائِسَ ثُمَّ أَعُودُ إِلَى شَاطِئِ ٱلْبَحْرِ مُتَرَقِّباً قُدُومَ أَيِّ مَرْكَبٍ يَحْمِلُنِي إِلَى بَلَدِي أَوْ يُبْعِدُنِي عَنْ هَذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ ٱلْمَشْئُومَةِ .

١٣ – مَرْكَبُ ٱلنَّجَاةِ

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ – بَيْنَمَا أَنَا عَلَى شَاطِئِ ٱلْبَحْرِ – إِذْ لَاحَ لِي مَرْكَبٌ مِنْ بَعِيدٍ ، وَلَمْ أَكَدْ أَرَاهُ حَتَّى نَهَضْتُ قَائِمًا وَأَخَذْتُ أُنَادِي بِأَعْلَى صَوْتِي وَأُشِيرُ لِمَنْ فِيهِ بِيَدِي ، وَأَمْسَكْتُ

بِقِطْعَةٍ مِنَ الثِّيَابِ فَلَوَّحْتُ لَهُمْ بِهَا ، حَتَّى فَطِنُوا إِلَيَّ ، فَحَوَّلُوا مَرْكَبَهُمْ إِلَى ٱلشَّاطِئِ حَتَّى بَلَغُوهُ ، فَبَدَأْتُهُمْ بِالسَّلَامِ فَرَدُّوا عَلَيَّ أَحْسَنَ رَدٍّ ، وَطَلَبْتُ إِلَيْهِمْ أَنْ يَأْخُذُونِي مَعَهُمْ ، فَلَمْ يَتَرَدَّدُوا فِي ذَلِكَ ، وَسَأَلُونِي عَنْ قِصَّتِي فَخَشِيتُ أَنْ أُخْبِرَهُمْ بِالْحَقِيقَةِ كُلِّهَا لِئَلَّا يَكُونَ فِيهِمْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ ٱلْجَزِيرَةِ فَتَسُوءَ ٱلْعَاقِبَةُ ، وَقُلْتُ لَهُمْ : « أَنَا تَاجِرٌ وَقَدْ غَرِقَ مَرْكَبِي فَنَجَوْتُ بِهَذِهِ الثِّيَابِ عَلَى لَوْحٍ مِنَ ٱلْخَشَبِ حَمَلَنِي إِلَى هَذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ ! »

وَعَرَضْتُ عَلَى رُبَّانِ السَّفِينَةِ هَدِيَّةً نَفِيسَةً – مُكَافَأَةً لَهُ عَلَى

صَنِيعِـهِ — فَرَفَضَ وَقَالَ لِي : « أَنَا لاَ آخُذُ عَلَى مَعْرُوفٍ أَجْـراً وَلاَ جَزَاءً » فَشَكَرْتُ لَهُ ذَلِكَ كُلَّ الشُّـكْرِ !

١٤ — اَلْعَوْدَةُ إِلَى اَلْوَطَنِ

وَعلِمْتُ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ مُسَافِرُونَ إِلى « اَلْبَصْرَةِ » فَفَرِحْتُ بِذَلِكَ فَرَحًا شَدِيداً ، وَلَمْ يَزَلِ اَلْمَرْكَبُ سَائِرًا بِنَا مِنْ جَزِيرَةٍ إِلى جَزِيرَةٍ وَمِنْ بَلَدٍ إِلى بَلَدٍ ، وَهُمْ يُطْعِمُونَنِي مِنْ طَعَامِهِمْ وَلاَ يَبْخَلُونَ عَلَيَّ بِشَيْءٍ مِمَّا أَحْتَاجُ إِلَيْهِ حَتَّى وَصَلْنَا إِلى « اَلْبَصْرَةِ » فَأَقَمْتُ بِهَا أَيَّاماً قَلاَئِلَ ، ثُمَّ ذَهَبْتُ مِنْهَا إِلى « بَغْدَادَ »

فَفَرِحَ بِي أَهْلِي وَأَصْحَابِي فَرَحًا لاَ يُوصَفُ وَهَنَّأُونِي بِالسَّلاَمَةِ ، وَوَهَبْتُ اَلْفُقَرَاءَ كَثِيراً مِنْ مَالِي وَعَزَمْتُ عَلَى تَرْكِ اَلْأَسْفَارِ بَعْدَ مَا لَقِيتُهُ مِنَ اَلْمَتَاعِبِ وَالشَّدَائِدِ .

*
* *

وَلَمَّا اُنْتَهَى « السِّنْدِبَادُ » مِنْ كَلاَمِهِ أَمَرَ لِلْحَمَّالِ بِمِائَةِ دِينَارٍ فَأَخَذَهَا شَاكِراً وَاُنْصَرَفَ هُوَ وَجَمِيعُ اَلْحَاضِرِينَ .

وَلَمَّا جَاءُوا فِي اَلْغَدِ بَدَأَ « السِّنْدِبَادُ » يَقُصُّ عَلَيْهِمْ مَا حَدَثَ لَهُ مِنَ اَلْعَجَائِبِ فِي رِحْلَتِهِ اَلْخَامِسَةِ فَقَالَ :

الرحلة الخامسة

«١» شيخ البحر «٢» مدينة القرود

١ — جَزِيرَةُ ٱلرُّخ

لَمْ يَكْفِنِي مَا رَكِبْتُهُ مِنَ ٱلْأَخْطَارِ ، وَلَمْ يَثْنِ عَزِيمَتِي مَا لَقِيتُهُ مِنَ ٱلْمَخَاوِفِ فِي أَسْفَارِي السَّابِقَةِ ، فَقَدْ نَسِيتُ ذَلِكَ كُلَّهُ — بَعْدَ قَلِيلٍ مِنَ الزَّمَنِ — وَرَغِبَتْ نَفْسِي فِي السَّفَرِ وَالِاتِّجَارِ ، فَأَعْدَدْتُ كُلَّ مَا أَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي رِحْلَتِي مِنْ بِضَاعَةٍ وَمَتْجَرٍ ، وَلَمْ أَسْتَأْجِرْ مَرْكَباً فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ — كَمَا فَعَلْتُ فِي أَسْفَارِي السَّابِقَةِ — بَلِ اشْتَرَيْتُ مَرْكَباً جَدِيداً لِيَذْهَبَ بِي إِلَى حَيْثُ أُرِيدُ ، وَسَافَرَ مَعِي جَمَاعَةٌ مِنْ أَعْيَانِ التُّجَّارِ .

ثُمَّ أَبْحَرَ بِنَا ٱلْمَرْكَبُ مِنْ مَدِينَةِ « الْبَصْرَةِ » وَكَانَتِ الرِّيحُ طَيِّبَةً وَٱلْأُمُورُ عَلَى أَحْسَنِ مَا يُرَامُ ، وَمَا زِلْنَا سَائِرِينَ فِي ٱلْبَحْرِ أَيَّامًا وَلَيَالِيَ حَتَّى رَسَا ٱلْمَرْكَبُ عَلَى جَزِيرَةٍ كَبِيرَةٍ مُقْفِرَةٍ مِنَ النَّاسِ ٱسْمُهَا جَزِيرَةُ الرُّخِّ ، فَخَطَرَ لَنَا أَنْ نَنْزِلَ بِهَا لِنُرَوِّحَ عَنْ أَنْفُسِنَا مَتَاعِبَ السَّفَرِ وَلَمْ نَكَدْ نَمْشِي فِيهَا قَلِيلًا حَتَّى لَاحَتْ لَنَا بَيْضَةُ رُخٍّ كَبِيرَةٌ فِي حَجْمِ تِلْكَ الْبَيْضَةِ الَّتِي وَصَفْتُهَا لَكُمْ فِي رِحْلَتِي الثَّانِيَةِ !

٢ — فَرْخُ ٱلرُّخِّ

وَكَانَتْ عَلَى وَشْكِ أَنْ تُفْرِخَ ، فَقَدْ أَطَلَّ فَرْخُ الرُّخِّ بِمِنْقَارِهِ مِنْهَا ، وَلَمْ يَكَدْ يَرَاهُ رِفَاقِي حَتَّى انْدَفَعُوا إِلى الْبَيْضَةِ يُكَسِّرُونَهَا

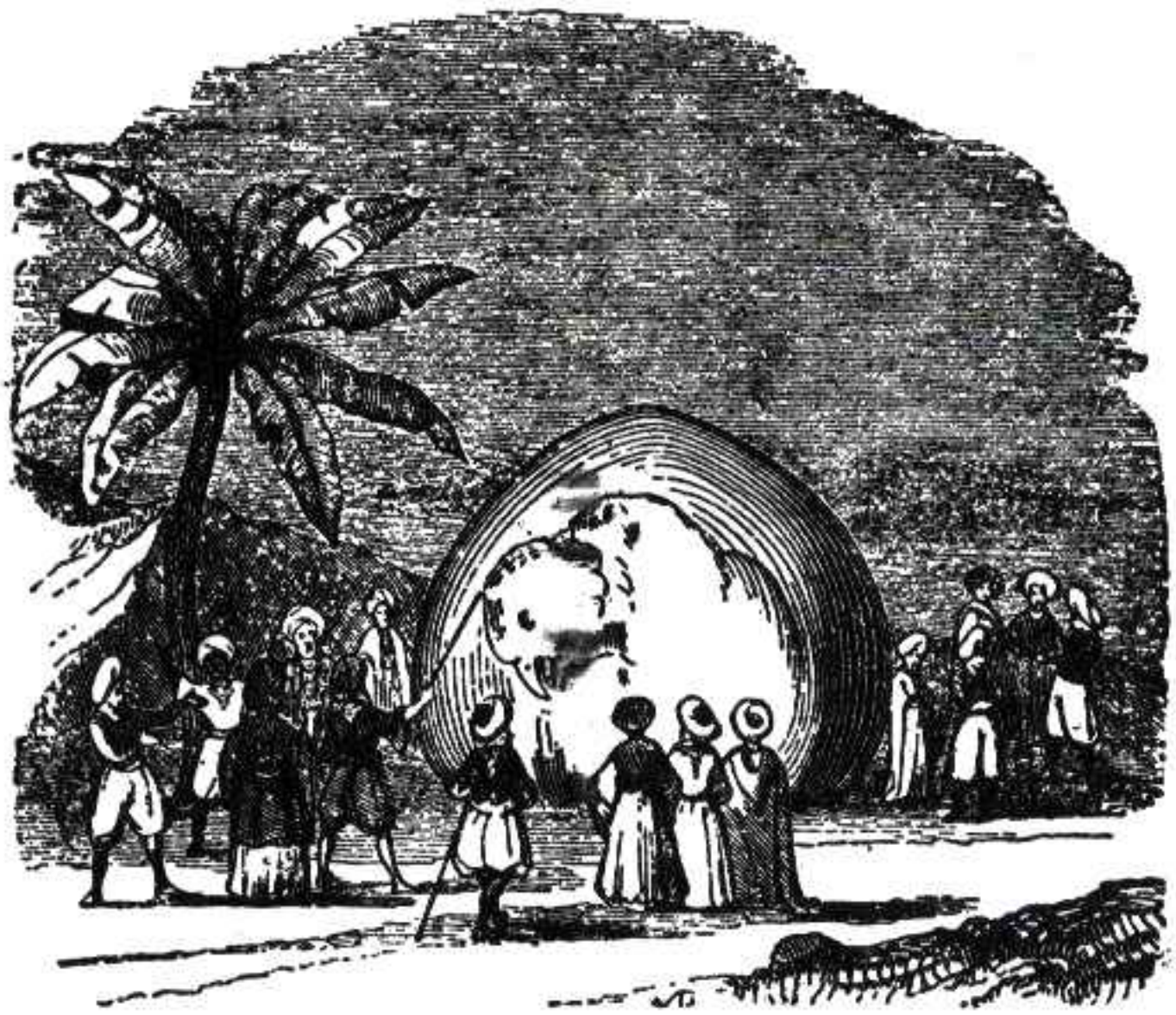

بِمَعَاوِلِهِمْ وَفُؤُسِهِمْ وَأَنَا أَنْهَاهُمْ عَنْ ذَلِكَ وَأُحَذِّرُهُمْ وَخَامَةَ الْعَاقِبَةِ ، وَهُمْ لَا يُصْغُونَ إِلى نُصْحِي وَلَا يَسْمَعُونَ لِي قَوْلًا . وَمَا زَالُوا بِهَا حَتَّى حَطَّمُوهَا تَحْطِيماً وَقَتَلُوا الْفَرْخَ وَأَخَذُوا شَيْئاً مِنْ لَحْمِهِ يَشْوُونَهُ عَلَى النَّارِ ، حَتَّى إِذَا تَمَّ لَهُمْ ذَلِكَ أَكَلُوهُ ؟

٣ — طَائِرَا ٱلرُّخِّ

وَمَا كَادُوا يَنْتَهُونَ مِنْ تِلْكَ ٱلْأَكْلَةِ ٱلْمَشْئُومَةِ حَتَّى أَظْلَمَ ٱلْجَوُّ

وَحَجَبَ عَنَّا ضَوْءَ الشَّمْسِ طَائِرَانِ كَبِيرَانِ فَعَرَفْتُ أَنَّهُمَا طَائِرَا الرُّخِّ ، وَأَدْرَكَ الرُّبَّانُ الْخَطَرَ الْمُحْدِقَ بِنَا فَصَاحَ : « أَسْرِعُوا إِلَى الْمَرْكَبِ قَبْلَ أَنْ يَحُلَّ بِكُمْ غَضَبُهُمَا وَنِقْمَتُهُمَا » فَجَرَيْنَا إِلَى الْمَرْكَبِ مُسْرِعِينَ ، وَأَرْخَيْنَا شِرَاعَهُ فَسَارَ بِنَا بِأَقْصَى سُرْعَةٍ .

٤ — انْتِقَامُ الرُّخِّ

وَكَانَ طَائِرَا الرُّخِّ قَدْ وَصَلَا إِلَى بَيْضَتِهِمَا فَرَأَيَا مَا حَلَّ بِوَلِيدِهِمَا فَصَاحَا مِنَ الْجَزَعِ ، أَمَّا نَحْنُ فَقَدْ سَارَ بِنَا الْمَرْكَبُ حَتَّى غَابَا عَنْ أَبْصَارِنَا فَحَسِبْنَا أَنَّنَا قَدْ أَصْبَحْنَا بِمَأْمَنٍ مِنْ شَرِّهِمَا ، وَلَكِنَّهُمَا عَادَا إِلَيْنَا — بَعْدَ قَلِيلٍ — وَفِي مِخْلَبَيْ كُلٍّ مِنْهُمَا صَخْرَةٌ عَظِيمَةٌ ، وَأَسْرَعَتْ أُنْثَى الرُّخِّ فَأَلْقَتِ الصَّخْرَةَ الَّتِي تَحْمِلُهَا عَلَى مَرْكَبِنَا ، وَكَانَ رُبَّانُنَا ذَكِيًّا مَاهِراً فَأَدَارَ فِي الْحَالِ سُكَّانَ الْمَرْكَبِ ، فَانْحَرَفَ عَنِ الصَّخْرَةِ فَهَوَتْ إِلَى الْبَحْرِ وَشَقَّتِ الْمَاءَ نِصْفَيْنِ كِدْنَا نُبْصِرُ مِنْ خِلَالِهِمَا قَرَارَهُ .

٥ — تَحْطِيمُ الْمَرْكَبِ

وَلَمْ نَكَدْ نَفْرَحُ بِزَوَالِ هَذَا الْخَطَرِ عَنَّا ، حَتَّى أَلْقَى طَيْرُ الرُّخِّ صَخْرَتَهُ عَلَى مَرْكَبِنَا ، فَأَصَابَتْ جَانِبَهُ وَهَشَّمَتْهُ تَهْشِيماً ، فَهَوَى الْمَرْكَبُ إِلَى جَوْفِ الْبَحْرِ بِمَا فِيهِ مِنَ الْمَتَاعِ وَالنَّاسِ وَكِدْتُ أَغْرَقُ

فِيمَنْ غَرِقَ لَوْلَا أَنَّنِي وَجَدْتُ لَوْحًا مِنَ ٱلْخَشَبِ قَرِيباً مِنِّي ، فَتَعَلَّقْتُ بِهِ لِلْحَالِ .

٦ – جَزِيرَةُ شَيْخِ ٱلْبَحْرِ

وَمَا زَالَ ٱللَّوْحُ سَائِراً بِي فِي عُرْضِ ٱلْبَحْرِ ، وَأَنَا لَا أَعْرِفُ أَيْنَ يَسِيرُ بِي حَتَّى قَذَفَتْنِي ٱلْأَمْوَاجُ – لِحُسْنِ حَظِّي – إِلَى جَزِيرَةٍ قَرِيبَةٍ ، وَكَانَ شَاطِئُهَا مُرْتَفِعاً كَثِيرَ ٱلصُّخُورِ وَٱلْحِجَارَةِ ، فَتَمَكَّنْتُ مِنَ ٱلصُّعُودِ إِلَيْهِ – بَعْدَ عَنَاءٍ شَدِيدٍ – وَمَا كِدْتُ أَبْلُغُهُ حَتَّى ٱرْتَمَيْتُ عَلَى ٱلْأَرْضِ مَنْهُوكَ ٱلْقُوَى ، وَلَمَّا أَفَقْتُ بَدَأْتُ أَمْشِي فِي ٱلْجَزِيرَةِ فَرَأَيْتُهَا جَنَّةً كَثِيرَةَ ٱلْأَشْجَارِ وَٱلْأَنْهَارِ ، فَأَكَلْتُ مِنْ فَاكِهَتِهَا ٱللَّذِيذَةِ وَشَرِبْتُ مِنْ مَائِهَا ٱلْعَذْبِ ، وَجَلَسْتُ تَحْتَ ظِلِّ شَجَرَةٍ كَبِيرَةٍ أَتَنَسَّمُ ٱلْهَوَاءَ ٱللَّطِيفَ وَأُرَوِّحُ عَنْ نَفْسِي مَا لَقِيتُهُ مِنْ عَنَاءِ ٱلْبَحْرِ حَتَّى جَاءَ ٱللَّيْلُ ، فَنِمْتُ نَوْمًا هَادِئاً إِلَى ٱلصَّبَاحِ .

وَقُمْتُ فِي ٱلْيَوْمِ ٱلتَّالِي وَقَدْ عَادَ إِلَيَّ نَشَاطِي فَأَخَذْتُ أَمْشِي فِي ٱلْجَزِيرَةِ .

٧ – شَيْخُ ٱلْبَحْرِ

وَلَاحَ لِي شَبَحٌ مِنْ بَعِيدٍ ، فَاقْتَرَبْتُ مِنْهُ ، فَإِذَا بِهِ شَيْخٌ كَبِيرٌ تَبْدُو عَلَيْهِ عَلَامَاتُ ٱلْهَرَمِ وَضَعْفُ ٱلشَّيْخُوخَةِ وَكَانَ جَالِسًا عَلَى نَهْرٍ فَحَسِبْتُهُ

مِمَّنْ رَمَاهُمْ سُوءُ اُلْحَظِّ إِلَى هَذِهِ اُلْجَزِيرَةِ ، وَقُلْتُ لَعَلَّ سَفِينَتَهُ غَرِقَتْ كَمَا غَرِقَتْ سَفِينَتِى ، وَرَمَاهُ اُلْمَوْجُ إِلَى هَذِهِ اُلْجَزِيرَةِ اُلنَّائِيَةِ كَمَا رَمَانِى .

فَبَدَأْتُهُ بِالتَّحِيَّةِ — وَأَنَا فَرِحٌ بِلِقَائِهِ — فَهَزَّ لِى رَأْسَه رَدًّا عَلَى تَحِيَّتِى . فَسَأَلْتُهُ : « مَاذا يَصْنَعُ فِى تِلْكَ اُلْجَزِيرَةِ ؟ » فَأَشَارَ إِلَىَّ أَنْ أَحْمِلَهُ عَلَى ظَهْرِى إِلَى شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنَ اُلنَّهْرِ لِيَقْطِفَ مِنْهَا بَعْضَ اُلْفَاكِهَةِ ، فَأَخَذَتْنِى اُلشَّفَقَةُ عَلَيْهِ — لِضَعْفِه وَكِبَرِ سِنِّهِ — وَحَمَلْتُهُ عَلَى ظَهْرِى حَتَّى أَخَذَ مَاشَاءَ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ فَاكِهَةٍ ، وَانْحَنَيْتُ لِأُنْزِلَهُ بِرِفْقٍ فَلَمْ يَنْزِلْ

* * *

إِنَّنِى كُلَّمَا ذَكَرْتُ هَذَا اُلشَّيْخَ لَا أَمْلِكُ نَفْسِى مِنَ اُلضَّحِكِ ، فَقَدْ خُدِعْتُ فِيهِ ، إِذْ كُنْتُ أَحْسَبُهُ شَيْخًا ضَعِيفًا فَانِيًا ، ثُمَّ بَدَتْ لِى حَقِيقَةُ أَمْرِهِ ، فَرَأَيْتُهُ قَوِيًّا شَدِيدَ اُلْقَسْوَةِ . فَقَدْ قَفَزَ عَلَى كَتِفَىَّ ، وَلَفَّ سَاقَيْهِ عَلَى عُنُقِى بِقُوَّةٍ حَتَّى كِدْتُ أَخْتَنِقُ ، وَأُغْمِىَ عَلَىَّ فَهَوَيْتُ إِلَى اُلْأَرْضِ ، وَلَمَّا أَفَقْتُ وَجَدْتُ هَذَا اُلْعَدُوَّ اُلْقَاسِىَ لَا يَزَالُ عَلَى كَتِفَىَّ وَقَدْ فَرَجَ سَاقَيْهِ قَلِيلاً بِمِقْدَارِ مَا يُمَكِّنُنِى مِنَ اُلتَّنَفُّسِ ، وَلَمَّا رَآنِى قَدْ أَفَقْتُ ضَرَبَنِى بِسَاقَيْهِ ضَرَبَاتٍ مُتَوَالِيَةً فَلَمْ أَسْتَطِعْ مُخَالَفَةَ أَمْرِهِ ، وَسِرْتُ إِلَى حَيْثُ أَشَارَ ، وَمَا زَالَ يَأْكُلُ مَا يَحْلُو لَهُ مِنَ اُلْفَاكِهَةِ وَاُلثَّمَرِ طُولَ اُلْيَوْمِ وَجُزْءًا مِنَ اُلَّلَيْلِ حَتَّى ضَعُفَتْ قُوَاىَ فَارْتَمَيْتُ عَلَى اُلْأَرْضِ — وَأَنَا بَيْنَ اُلْحَيَاةِ وَاُلْمَوْتِ — لِشِدَّةِ مَا لَحِقَنِى مِنَ

ٱلتَّعَبِ فَفَرَجَ سَاقَيْهِ قَلِيلاً حَتَّى نِمْتُ ، وَلَمَّا طَلَعَ ٱلصُّبْحُ ظَلَّ يَضْرِبُنِي بِسَاقَيْهِ وَيَرْكُلُنِي بِقَدَمَيْهِ حَتَّى أَيْقَظَنِي ، وَقَضَيْتُ يَوْمِي كَمَا قَضَيْتُ ٱلْأَمْسِ مُتَأَلِّماً أَشَدَّ ٱلْأَلَمِ مِنْ هَذِهِ ٱلْمُصِيبَةِ ٱلَّتِي لَمْ تَكُنْ فِي ٱلْحُسْبَانِ ، وَلَمْ أَزَلْ عَلَى هَذِهِ ٱلْحَالِ مُدَّةً مِنَ ٱلزَّمَنِ .

٨ – ٱلِانْتِقَامُ مِنْ شَيْخِ ٱلْبَحْرِ

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ وَجَدْتُ كَثِيراً مِنَ ٱلْعِنَبِ ٱلنَّاضِجِ وَإِلَى جَانِبِهِ قَرْعٌ يَابِسٌ كَبِيرُ ٱلْحَجْمِ ، فَقَسَمْتُهُ أَنْصَافاً وَغَسَلْتُهُ بِٱلْمَاءِ بِعِنَايَةٍ تَامَّةٍ ثُمَّ وَضَعْتُ فِيهِ شَيْئاً مِنَ ٱلْعِنَبِ وَتَرَكْتُهُ فِي ٱلشَّمْسِ عِدَّةَ أَيَّامٍ حَتَّى ٱخْتَمَرَ ، وَشَرِبْتُ مِنْهُ قَلِيلاً فَبَدَتْ عَلَى وَجْهِي نَشْوَةُ ٱلْفَرَحِ ، فَأَشَارَ إِلَيَّ ٱلشَّيْخُ ٱلْمَلْعُونُ أَنْ أَسْقِيَهُ مِنْ ذَلِكَ ٱلْعَصِيرِ ، فَلَمْ أَتَرَدَّدْ فِي تَلْبِيَةِ طَلَبِهِ ، وَمَا زَالَ يَشْرَبُ حَتَّى ذَهَبَ عَقْلُهُ وَٱرْتَخَتْ سَاقَاهُ ، فَأَلْقَيْتُهُ عَلَى

ٱلْأَرْضِ وَأَخَذْتُ حَجَراً كَبِيراً فَأَلْقَيْتُهُ عَلَى رَأْسِهِ بِقُوَّةٍ فَقَتَلْتُهُ لِلْحَالِ . وَفَرِحْتُ بِهَذَا ٱلْفَوْزِ فَرَحاً لَا يُوصَفُ .

٩ – فِى ٱنْتِظَارِ ٱلْفَرَجِ

وَمَكَثْتُ عِدَّةَ أَيَّامٍ وَأَنَا أَتَرَدَّدُ عَلَى شَاطِىءِ ٱلْبَحْرِ مُرْتَقِباً سَفِينَةً تَمُرُّ بِى حَتَّى أَذِنَ ٱللهُ لِى بِالْخَلَاصِ مِنْ هَذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ ٱلَّتِى لَا أَنِيسَ فِيهَا ، فَلَاحَتْ لِى سَفِينَةٌ كَبِيرَةٌ ، وَرَأَيْتُهَا تَقْتَرِبُ مِنَ ٱلْجَزِيرَةِ فَأَشَرْتُ إِلَى مَنْ فِيهَا فَأَقْبَلُوا عَلَىَّ وَبَدَأُونِى بِالتَّحِيَّةِ ، فَرَدَدْتُهَا عَلَيْهِمْ أَحْسَنَ رَدٍّ ، وَسَأَلُونِى عَنْ قِصَّتِى فَأَخْبَرْتُهُمْ بِكُلِّ مَا حَدَثَ لِى فَعَجِبُوا مِنْ ذَلِكَ أَشَدَّ ٱلْعَجَبِ ، وَقَالَ لِى أَحَدُهُمْ :

« لَقَدْ وَقَعْتَ فِى قَبْضَةِ شَيْخِ ٱلْبَحْرِ ، وَلَوْلَا عِنَايَةُ ٱللهِ وَلُطْفُهُ بِكَ لَمَا نَجَوْتَ مِنْهُ » وَكَانَتْ هَذِهِ ٱلْجَزِيرَةُ مَشْهُورَةً عِنْدَ ٱلتُّجَّارِ بِأَنَّ مَنْ يَصِلُ إِلَيْهَا لَا تُكْتَبُ لَهُ ٱلسَّلَامَةُ .

١٠ – مَدِينَةُ ٱلْقُرُودِ

وَمَكَثْنَا مُدَّةً قَصِيرَةً مِنَ ٱلزَّمَنِ ثُمَّ أَقْلَعَتْ بِنَا ٱلسَّفِينَةُ وَقَدْ لَقِيتُ مِنْ رُبَّانِهَا عِنَايَةً كَبِيرَةً ، وَلَمْ نَزَلْ سَائِرِينَ فِى ٱلْبَحْرِ أَيَّاماً وَلَيَالِىَ حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى مَدِينَةٍ جَمِيلَةٍ سَأَلْتُ ٱلرُّبَّانَ عَنِ ٱسْمِهَا فَأَخْبَرَنِى

أَنَّهَا مَدِينَةُ ٱلْقُرُودِ ، وَقَدْ أَعْطَانِى أَحَدُ رِفَاقِى مِخْلاَةً كَبِيرَةً ، وَكَانَ مَعَ كُلٍّ وَاحِدٍ مِنْ أَصْحَابِى مِخْلاَةٌ مِثْلُهَا ، وَسَارُوا — وَأَنَا مَعَهُمْ — فَمَلأَ كُلٌّ مِنْهُمْ مِخْلاَتَهُ بِالْحِجَارَةِ وَفَعَلْتُ فِعْلَهُمْ ، وَمَا زِلْنَا سَائِرِينَ حَتَّى بَلَغْنَا غَابَةً كَبِيرَةً مَمْلُوءَةً بِشَجَرِ النَّارَجِيلِ « ٱلْجَوْزِ ٱلْهِنْدِى » وَعَلَى كُلِّ شَجَرَةٍ جَمَاعَةٌ مِنَ الْقِرَدَةِ ، فَأَخَذَ التُّجَّارُ يَرْجُمُونَهَا بِالْحِجَارَةِ — وَاقْتَدَيْتُ بِهِمْ فِى ذَلِكَ — فَرَأَيْتُ الْقِرَدَةَ قَدْ اهْتَاجَتْ وَغَاظَهَا مِنَّا صَنِيعُنَا بِهَا ، فَأَخَذَتْ تَرْمِينَا بِالنَّارَجِيلِ — وَنَحْنُ نَجْمَعُهُ — حَتَّى مَلأَ كُلٌّ وَاحِدٍ مِنَّا مِخْلاَتَهُ ، ثُمَّ عُدْنَا إِلَى السَّفِينَةِ ، وَفِى الْيَوْمِ التَّالِى ذَهَبْنَا جَمِيعًا إِلَى الْغَابَةِ وَصَنَعْنَا مَا صَنَعْنَاهُ بِالْأَمْسِ . وَمَا زِلْنَا كَذَلِكَ عِدَّةَ أَيَّامٍ حَتَّى جَمَعْنَا مِقْدَاراً كَبِيراً مِنَ النَّارَجِيلِ ، ثُمَّ أَبْحَرَتْ بِنَا السَّفِينَةُ أَيَّامًا وَلَيَالِىَ حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى بَلَدٍ كَبِيرٍ فَبِعْنَا فِيهِ مَا مَعَنَا مِنَ النَّارَجِيلِ بِأَغْلَى ثَمَنٍ وَاشْتَرَيْنَا بِثَمَنِهِ كَثِيراً مِنَ التَّوَابِلِ وَخَشَبِ الصَّنْدَلِ.

١١ — غَوَّاصُو ٱللُّؤْلُؤِ

وَمَا زِلْنَا نَنْتَقِلُ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ وَنَتَّجِرُ فِى كُلِّ مَكَانٍ نَحُلُّ بِهِ حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى بَلَدٍ كَبِيرٍ حَيْثُ رَأَيْنَا غَوَّاصِى ٱللُّؤْلُؤِ يَغُوصُونَ فِى أَعْمَاقِ الْبَحْرِ رَغْبَةً فِى الْحُصُولِ عَلَيْهِ ، فَطَلَبْتُ إِلَى أَحَدِ الْغَوَّاصِينَ أَنْ يَنْزِلَ إِلَى قَرَارِ الْبَحْرِ وَيَجْمَعَ لِى مَا يُصِيبُهُ مِنَ ٱللُّؤْلُؤِ

وَأَعْطَيْتُهُ أَجْرَهُ عَلَى ذَلِكَ فَفَعَلَ وَكَانَ حَظِّى سَعِيداً فَخَرَجَ وَمَعَهُ مِنَ اللُّؤْلُؤِ شَىءٌ كَثِيرٌ .

١٢ — أَلْعَوْدَةُ إِلَى ٱلْوَطَنِ

وَعُدْتُ إِلَى «الْبَصْرَةِ» وَمَعِى مِنَ الْمَالِ وَاللُّؤْلُؤِ وَخَشَبِ الصَّنْدَلِ ثَرْوَةٌ طَائِلَةٌ ، ثُمَّ سَافَرْتُ مِنَ « الْبَصْرَةِ » إِلَى « بَغْدَادَ » فَلَقِيَنِى أَهْلِى وَأَصْحَابِى فَرِحِينَ بِعَوْدَتِى سَالِماً ، وَتَصَدَّقْتُ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ بِمَالٍ كَثِيرٍ وَعَزَمْتُ عَلَى الْبَقَاءِ فِى « بَغْدَادَ » طُولَ عُمْرِى آمِناً مُطْمَئِناً .

* * *

وَلَمَّا انْتَهَى « السِّنْدِبَادُ » مِنْ كَلَامِهِ أَمَرَ لِلْحَمَّالِ بِمِائَةِ دِينَارٍ فَأَخَذَهَا دَاعِياً لَهُ وَانْصَرَفَ مِنْ عِنْدِهِ شَاكِراً مَسْرُوراً وَخَرَجَ مَعَهُ جَمِيعُ الْحَاضِرِينَ ، عَلَى أَنْ يَعُودُوا إِلَى « السِّنْدِبَادِ » فِى الْغَدِ

وَلَمَّا حَضَرُوا فِى الْيَوْمِ التَّالِى بَدَأَ « السِّنْدِبَادُ » يَقُصُّ عَلَيْهِمْ رِحْلَتَهُ السَّادِسَةَ فَقَالَ :

فى جزيرة الهلاك

١ — بعد عام

لعلكم تعجبون أشد العجب حين تعلمون أنني لم أتب عن السفر بعد ما لقيته فى أسفارى الخمسة من الأخطار والمهالك ، ولكم العذر فى هذه الدهشة ، فإنني — أنا نفسى — أعجب مثلكم من تلك المجازفة ولكن قضاء الله لا مفر منه ، فقد سولت نفسى الأمارة بالسوء أن أشقى بعد الراحة وأحتمل من الآلام والمخاوف فوق ما احتملت من قبل . بعد أن بقيت فى « بغداد » سنة كاملة ناعما مرتاح القلب ، وعاودنى شوق شديد إلى السفر والاتجار ، وبذل أصدقائى كل ما فى وسعهم من نصح ليثنوا عزيمتى ويعوقونى عن السفر فلم يفلحوا .

٢ — هبوب العاصفة

ولما أعددت عدتى واشتريت ما أحتاج إليه من البضائع سافرت إلى البصرة حيث أبحرت وجماعة من التجار قاصدين إلى بلاد الهند ، وما زلنا سائرين فى البحر أياما وليالى حتى هبت

عَلَيْنَا — ذَاتَ يَوْمٍ — عَاصِفَةٌ شَدِيدَةٌ ، فَظَلَّتِ ٱلْأَمْوَاجُ تَلْعَبُ بِالْمَرْكَبِ وَأَصْبَحْنَا مُهَدَّدِينَ بِالْغَرَقِ بَيْنَ سَاعَةٍ وَأُخْرَى ، وَمَكَثْنَا عَلَى هَذِهِ ٱلْحَالِ يَوْماً وَلَيْلَةً ، ثُمَّ هَدَأَتِ ٱلْعَاصِفَةُ ، بَعْدَ أَنْ ضَلَّتْ سَفِينَتُنَا وَأَصْبَحْنَا لاَ نَعْرِفُ فِى أَىِّ مَكَانٍ نَحْنُ وَلاَ إِلى أَيَّةِ جِهَةٍ نَقْصِدُ ، وَلاَحَ لَنَا جَبَلٌ شَاهِقٌ عَلَى مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ ، وَلَمْ يَكَدْ يَتَبَيَّنُهُ ٱلرُّبَّانُ حَتَّى صَرَخَ مِنَ ٱلْجَزَعِ وَبَكَى ، فَسَأَلْنَاهُ : « مَاذَا حَدَثَ ؟ » فَأَجَابَنَا مُتَأَثِّراً حَزِيناً — :«لَقَدْ كُتِبَ عَلَيْنَا ٱلْهَلاَكُ فِى هَذِهِ ٱلرِّحْلَةِ ، وَلَمْ يَبْقَ لَنَا أَمَلٌ فِى النَّجَاةِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ، فَادْعُوا اللهَ وَاسْتَغْفِرُوا لِذُنُوبِكُمْ وَلْيُوَدِّعْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا قَبْلَ أَنْ يَحُلَّ بِكُمُ ٱلْهَلاَكُ فَإِنَّ سَفِينَتَنَا سَتَصْطَدِمُ — لاَ مَحَالَةَ — بِهَذَا ٱلْجَبَلِ ٱلْعَالِى ٱلَّذِى تَرَوْنَهُ ، وَلَمْ يَنْجُ مَرْكَبٌ وَصَلَ إِلَى هَذَا ٱلْمَكَانِ ! »

* * *

وَلَمْ يَكَدْ يُتِمُّ ٱلرُّبَّانُ قَوْلَهُ حَتَّى رَأَيْنَا ٱلْأَمْوَاجَ تَدْفَعُ ٱلْمَرْكَبَ دَفْعاً إِلَى ذَلِكَ ٱلْجَبَلِ ، وَحَاوَلْنَا أَنْ نُحَوِّلَ مَرْكَبَنَا إِلى جِهَةٍ أُخْرَى فَلَمْ نُفْلِحْ ، وَمَا زَالَتِ ٱلسَّفِينَةُ سَائِرَةً بِسُرْعَةٍ هَائِلَةٍ حَتَّى وَصَلَتْ إِلى ٱلْجَبَلِ فَاصْطَدَمَتْ بِهِ صَدْمَةً عَنِيفَةً حَطَّمَتْهَا تَحْطِيماً وَفَكَّكَتْ أَلْوَاحَهَا وَأَسْرَعَ كُلٌّ مِنَّا إِلى لَوْحٍ مِنَ ٱلْخَشَبِ لِيَنْجُوَ بِهِ مِنَ ٱلْغَرَقِ

بَعْدَ انْ أخَذْنَا مِنَ ٱلسَّفِينَةِ أَنْفَسَ مَا فِيهَا ، وَمَا زِلْنَا مُجِدِّينَ فِي طَلَبِ ٱلْخَلَاصِ حَتَّى تَمَكَّنَّا - بَعْدَ جَهْدٍ جَهِيدٍ - مِنَ ٱلصُّعُودِ إِلَى ٱلشَّاطِئِ حَيْثُ وَضَعْنَا مَا حَمَلْنَاهُ مِنَ ٱلزَّادِ وَٱلنَّفَائِسِ ، فَقَالَ لَنَا ٱلرُّبَّانُ - : « يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَحْفِرَ قُبُورَنَا بِأَيْدِينَا ، فَلَيْسَ لَنَا أَمَلٌ فِي ٱلنَّجَاةِ مِنْ هَذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ ٱلَّتِي لَمْ تُكْتَبِ ٱلسَّلَامَةُ لِأَيِّ سَفِينَةٍ وَصَلَتْ إِلَيْهَا »

٣ - فِي جَزِيرَةِ ٱلْهَلَاكِ - عِظَامُ ٱلْمَوْتَى

وَقَدْ تَبَيَّنَ لَنَا صِدْقُ قَوْلِهِ ، فَقَدْ رَأَيْنَا أَمَامَنَا كَثِيراً مِنْ بَقَايَا

ٱلسُّفُنِ ٱلْمُحَطَّمَةِ وَلَاحَتْ مِنَّا ٱلْتِفَاتَةٌ فَرَأَيْنَا كَوْمَةً مِنْ عِظَامِ

ٱلْمَوْتَى فَعَلِمْنَا أن مَصِيرَنَا سَيَكُونُ — بِلَا شَكٍّ — مِثْلَ مَصِيرِهِم وَأَيْقَنَّا أَنَّ أَيَّامَنَا فِى ٱلْحَيَاةِ مَعْدُودَةٌ ، وَقَطَعْنَا ٱلْأَمَلَ مِنَ ٱلنَّجَاةِ ، وَكُنَّا نَرَى فِى كُلِّ مَكَانٍ — عَلَى شَاطِىءِ ٱلْبَحْرِ — بَضَائِعَ وَذَخَائِرَ نَفِيسَةً مَطْرُوحَةً عَلَى ٱلصُّخُورِ فَنَذْكُرُ مَصَارِعَ أَصْحَابِهَا مُتَرَقِّبِينَ ٱللَّحَاقَ بِهِمْ بَعْدَ قَلِيلٍ مِنَ ٱلزَّمَنِ .

وَوَجَدْنَا نَهْرًا عَلَى سَفْحِ ٱلْجَبَلِ يَخْرُجُ مِنْ كَهْفٍ مُظْلِمٍ دُونَ أَنْ يَعْلَمَ أَحَدٌ ما وَرَاءَ هَذَا ٱلْكَهْفِ ، وَرَأَيْنَا كَثِيراً مِنَ ٱلْأَحْجَارِ ٱلْكَرِيمَةِ — كَٱلْمَاسِ وَٱلْيَاقُوتِ وَالزُّمُرُّدِ — مُبَعْثَرَةً فِى كُلِّ مَكَانٍ فَلَمْ نَلْتَفِتْ إِلَيْهَا وَمَا عُنِىَ أَحَدٌ مِنَّا بِجَمْعِهَا .

*
* *

وَبَقِينَا يَائِسِينَ فِى تِلْكَ ٱلْجَزِيرَةِ ٱلْمُوحِشَةِ لَا أَمَلَ لَنَا فِى ٱلنَّجَاةِ لِأَنَّ كُلَّ مَرْكَبٍ نَتَرَقَّبُ وُصُولَهُ إِلَيْنَا يَكُونُ نَصِيبَهُ أَنْ يُحَطَّمَ كَمَا حُطِّمَ مَرْكَبُنَا وَيَلْقَى مَنْ فِيهِ مِثْلَ مَا لَقِينَا .

وَقَدْ قَسَمَ ٱلرُّبَّانُ مَا مَعَنَا مِنَ ٱلزَّادِ قِسْمَةً عَادِلَةً .

٤ — بَعْدَ فَرَاغِ الزَّادِ

وَبَقِينَا عَلَى هَذِهِ ٱلْحَالِ مُدَّةً مِنَ ٱلزَّمَنِ حَتَّى نَفِدَ مَا مَعَ رِفَاقِى مِنَ ٱلزَّادِ فَمَاتُوا جُوعاً — وَاحِداً بَعْدَ ٱلْآخَرِ — وَدَفَنْتُهُمْ جَمِيعاً

وَبَقِيتُ وَحْدِى بَعْدَهُمْ أَتَرَقَّبُ ٱلْمَوْتَ ، وَكُنْتُ أَقْتَصِدُ فِى طَعَامِى فَلَا أَقْتَاتُ إِلَّا بِمِقْدَارِ مَا أَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى ٱلْحَيَاةِ حَتَّى أَوْشَكَ زَادِى أَنْ يَنْفَدَ ، وَجَعَلْتُ أُفَكِّرُ فِى هَذِهِ ٱلْخَاتِمَةِ ٱلْمُحْزِنَةِ وَأَلُومُ نَفْسِى عَلَى هَذِهِ ٱلرِّحْلَةِ ٱلْمَشْئُومَةِ .

٥ ــ الأَمَلُ بَعْدَ اليَأْس

وَلَكِنِّى لَمْ أَسْتَسْلِمْ لِلْيَأْسِ فَمَشَيْتُ إِلَى ٱلنَّهْرِ ، وَجَعَلْتُ أُسَائِلُ نَفْسِى وَأَنَا أَتَأَمَّلُهُ : « أَيْنَ يَذْهَبُ هَذَا ٱلنَّهْرُ بَعْدَ أَنْ يَجْتَازَ ٱلْكَهْفَ ؟ إِنَّهُ لَا بُدَّ آتٍ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ آهِلٍ بِالسُّكَّانِ خَلْفَ هَذَا ٱلْجَبَلِ ٱلْعَالِى ! » وَخَطَرَ لِى أَنْ أَصْنَعَ زَوْرَقًا ، وَقُلْتُ لِنَفْسِى : « إِنَّنِى إِنْ بَقِيتُ فِى هَذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ فَأَنَا هَالِكٌ لَا مَحَالَةَ ، فَإِذَا رَكِبْتُ زَوْرَقًا وَهَلَكْتُ دَاخِلَ ٱلْكَهْفِ فَلَنْ أَخْسَرَ شَيْئًا . وَأَكُونُ قَدْ بَذَلْتُ مَا فِى وُسْعِى وَلَمْ أُقَصِّرْ فِى شَىْءٍ . وَمَنْ يَدْرِى فَرُبَّمَا نَجَوْتُ مِنَ ٱلْهَلَاكِ بِهَذِهِ ٱلْوَسِيلَةِ » .

٦ ــ زَوْرَقُ النَّجَاةِ

وَلَمْ أَتَرَدَّدْ فِى إِنْفَاذِ هَذِهِ ٱلْفِكْرَةِ ٱلْجَرِيئَةِ فَجَمَعْتُ مِنْ أَلْوَاحِ ٱلْخَشَبِ مَا يَكْفِى لِصُنْعِ زَوْرَقٍ صَغِيرٍ ، وَلَمَّا أَتْمَمْتُهُ أَنْزَلْتُهُ إِلَى ٱلنَّهْرِ وَمَلَأْتُهُ بِقَدْرِ مَا يَسْتَطِيعُ حَمْلَهُ مِنَ ٱلذَّخَائِرِ ٱلنَّفِيسَةِ وَٱلْحِجَارَةِ

ٱلْكَرِيمَةِ ٱلْمُبَعْثَرَةِ فِى أَنْحَاءِ ٱلْجَزِيرَةِ ، وَصَنَعْتُ مِجْدَافَيْنِ صَغِيرَيْنِ ، وَصَحَّتْ عَزِيمَتِى عَلَى دُخُولِ ذَلِكَ ٱلْكَهْفِ لِمَعْرِفَةِ مَا وَرَاءَهُ .

٧ – فِى ظُلْمَةِ الكَهْفِ

فَرَكِبْتُ زَوْرَقِى ٱلصَّغِيرَ وَجَعَلْتُ أُجَدِّفُ فَرَأَيْتُ ٱلزَّوْرَقَ يَسِيرُ بِى دَاخِلَ ٱلْكَهْفِ بِسُرْعَةٍ ، وَوَجَدْتُنِى فِى ظَلَامٍ دَامِسٍ ، وَبَقِيتُ عَلَى هَذِهِ ٱلْحَالِ مُدَّةً طَوِيلَةً حَسِبْتُهَا – لِهَوْلِ مَا أَنَا فِيهِ – أَيَّاماً وَلَيَالِىَ ، وَشَعَرْتُ بِأَنَّ ٱلْمَكَانَ يَزْدَادُ ضِيقاً حَتَّى كَادَ زَوْرَقِى ٱلصَّغِيرُ يَتَحَطَّمُ ، وَخَشِيتُ أَنْ يَصْطَدِمَ رَأْسِى بِسَقْفِ ٱلْكَهْفِ فَاسْتَلْقَيْتُ عَلَى ظَهْرِى ، ثُمَّ أَجْهَدَنِى ٱلْجُوعُ وَٱلتَّعَبُ وَغَلَبَنِى ٱلنُّعَاسُ فَنِمْتُ نَوْماً عَمِيقاً .

٨ – ٱلْخَلَاصُ مِنْ جَزِيرَةِ ٱلْهَلَاكِ

وَلَمَّا ٱسْتَيْقَظْتُ وَجَدْتُنِى قَدْ خَرَجْتُ مِنْ ظُلْمَةِ ٱلْكَهْفِ إِلَى سَهْلٍ فَسِيحٍ ، وَرَأَيْتُ زَوْرَقِى مَرْبُوطاً إِلَى جَانِبِ ٱلنَّهْرِ وَحَوْلِى جَمَاعَةٌ مِنَ ٱلنَّاسِ يَنْظُرُونَ إِلَىَّ نَظَرَاتِ ٱلْعَطْفِ وَٱلدَّهْشَةِ ، فَنَهَضْتُ شَاكِراً لَهُمْ حُسْنَ صَنِيعِهِمْ وَحَيَّيْتُهُمْ بِتَحِيَّةِ ٱلْإِخْلَاصِ وَٱلْمَوَدَّةِ فَرَدُّوا عَلَىَّ بِكَلَامٍ لَمْ أَفْهَمْهُ ، وَلَمْ أَكَدْ أَتَبَيَّنُ أَنَّنِى قَدْ نَجَوْتُ

مِنْ جَزِيرَةِ ٱلْهَلَاكِ حَتَّى امْتَلَأَتْ نَفْسِى فَرَحًا فَأَنْشَدْتُ قَوْلَ ٱلْقَائِلِ:

«مَا بَيْنَ غَمْضَةِ عَيْنٍ وَٱنْتِبَاهَتِهَا يُغَيِّرُ اللهُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالِ»

٩ — فِى جَزِيرَةِ سَرَنْدِيبَ

وَكَانَ أَحَدُ ٱلْحَاضِرِينَ يَعْرِفُ ٱلْعَرَبِيَّةَ فَفَهِمَ كَلَامِى وَعَرَفَ أَنَّنِى عَرَبِىٌّ فَاقْتَرَبَ مِنِّى وَقَالَ:

«لَا تَعْجَبْ يَا أَخِى وَلَا تَخْشَ شَيْئًا فَأَنْتَ فِى بِلَادِنَا، وَقَدْ رَأَيْنَاكَ نَائِمًا فِى هَذَا الزَّوْرَقِ فَخَشِينَا عَلَيْكَ الْغَرَقَ وَرَبَطْنَاهُ إِلَى شَاطِئِ النَّهْرِ، وَمَكَثْنَا حَوْلَكَ حَتَّى ٱسْتَيْقَظْتَ مِنْ نَوْمِكَ، فَقُلْ لَنَا مِنْ أَىِّ مَكَانٍ أَتَيْتَ وَإِلَى أَىِّ مَكَانٍ تَقْصِدُ؟»

فَسَأَلْتُهُ « وَأَيْنَ أَنَا الآنَ ؟ »

فَقَالَ لِى : « أَنْتَ فِى جَزِيرَةِ سَرَنْدِيبَ »

فَقُلْتُ لَهُ « إِنَّنِى أَكَادُ أَهْلِكُ جُوعًا »

فَأَسْرَعَ بِإِحْضَارِ الطَّعَامِ فَأَكَلْتُ حَتَّى شَبِعْتُ ثُمَّ قَصَصْتُ عَلَيْهِ قِصَّتِى فَتَرْجَمَهَا لِأَصْحَابِهِ فَعَجِبُوا أَشَدَّ الْعَجَبِ وَقَالُوا لِى : « إِنَّ قِصَّتَكَ عَجِيبَةٌ وَلاَ بُدَّ مِنْ ذَهَابِكَ مَعَنَا إِلَى الْمَلِكِ لِتَقُصَّهَا عَلَيْهِ »

١٠ — فِى حَضْرَةِ مَلِكِ سَرَنْدِيبَ

وَأَرْكَبُونِى جَوَاداً وَحَمَلُوا زَوْرَقِى — بِمَا فِيهِ — عَلَى أَكْتَافِهِمْ ، وَلَمْ نَزَلْ سَائِرِينَ حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَلَمَّا مَثَلْتُ بَيْنَ يَدَىِ الْمَلِكِ حَيَّيْتُهُ فَهَشَّ لِلِقَائِى وَرَدَّ عَلَىَّ التَّحِيَّةَ أَحْسَنَ رَدٍّ وَسَأَلَنِى عَنِ اسْمِى فَقُلْتُ لَهُ :

« اسْمِى السِّنْدِبَادُ وَيَدْعُونِى النَّاسُ بِاسْمِ السِّنْدِبَادِ الْبَحْرِىِّ لِكَثْرَةِ أَسْفَارِى وَرُكُوبِى الْبِحَارَ »

فَسَأَلَنِى الْمَلِكُ : « وَكَيْفَ وَصَلْتَ إِلَى هُنَا ؟ »

فَقَصَصْتُ عَلَيْهِ كُلَّ مَا حَدَثَ لِى وَلَمْ أَكْتُمْ عَنْهُ شَيْئاً ، فَدَهِشَ الْمَلِكُ لِذَلِكَ أَشَدَّ دَهْشَةٍ ، وَفَرِحَ بِنَجَاتِى وَأَمَرَ أَنْ تُكْتَبَ قِصَّتِى بِمِدَادٍ مِنَ الذَّهَبِ لِغَرَابَتِهَا وَلِمَا فِيهَا مِنَ الْعِبَرِ .

* * *

ثُمَّ رَأَى ٱلْمَلِكُ مَا فِى ٱلزَّوْرَقِ مِنْ كُنُوزٍ وَنَفَائِسَ ، وَنَظَرَ إِلَى مَا يَحْوِيهِ مِنَ ٱلْمَرْجَانِ وَٱلزُّمُرُّدِ وَٱلْمَاسِ وَهُوَ مُكَدَّسٌ أَكْدَاساً فَوَجَدَهُ أَثْمَنَ مِمَّا فِى خَزَائِنِهِ ، وَأَبْدَى دَهْشَتَهُ مِنْ ذَلِكَ ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُ مُعْجَباً بِتِلْكَ ٱلْكُنُوزِ ٱلَّتِى لاَ تُقَوَّمُ بِثَمَنٍ عَرَضْتُ عَلَيْهِ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهَا مَا يَشَاءُ وَقُلْتُ لَهُ :

« إِنَّنِى وَجَمِيعَ مَا أَمْلِكُ طَوْعُ أَمْرِكَ . »

فَأَجَابَنِى مُبْتَسِماً : « كَلاَّ يَا سِنْدبَادُ ، إِنَّ كُنُوزَكَ مِلْكٌ لَكَ لاَ يُنَازِعُكَ فِيهَا أَحَدٌ ، وَلَسْتُ طَامِعاً فِيهَا ، وَلَنْ آخُذَ مِنْهَا شَيْئاً بَلْ أَزِيدُهَا لَكَ ، بَارَكَ ٱللهُ فِيكَ وَمَتَّعَكَ بِهَا ! »

فَشَكَرْتُهُ عَلَى ذَلِكَ شُكْراً جَزِيلاً .

١١ — فِى ضِيَافَةِ مَلِكِ سَرَنْدِيبَ

وَأَعَدَّ لِى ٱلْمَلِكُ مَنْزِلاً مِنْ أَفْخَمِ مَنَازِلِهِ وَنَقَلَ إِلَيْهِ كُنُوزِى وَذَخَائِرِى وَهَيَّأَ لِى كُلَّ مَا أَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ عَبِيدٍ وَخَدَمٍ وَغَمَرَنِى بِكَرَمِهِ وَعَطْفِهِ ، وَهُوَ مَلِكٌ عَادِلٌ تُحِبُّهُ الرَّعِيَّةُ وَتُخْلِصُ لَهُ إِخْلاَصاً شَدِيداً ، وَمِنْ عَادَتِهِ أَنْ يَرْكَبَ ٱلْفِيلَ فِى مَوْكِبِ حَافِلٍ أَيَّامَ

الْأَعْيَادِ الْعَامَّةِ ، وَكَانَ لاَ يَمُرُّ بِي يَوْمٌ دُونَ أَنْ أَزُورَهُ وَأُكَرِّرَ

لَهُ الشُّكْرَ عَلَى هَذِهِ الْعِنَايَةِ الْعَظِيمَةِ ، ثُمَّ أَخْرُجَ إِلَى الْمَدِينَةِ فَأَرَى فِيهَا غَرَائِبَ وَأَعَاجِيبَ لاَ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَصِفَهَا لَكُمْ لِكَثْرَتِهَا .

١٢ — عَجَائِبُ سَرَنْدِيبَ

وَمِمَّا أَذْكُرُهُ لَكُمْ مِنْ عَجَائِبِهَا — عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ — أَنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ فِيهَا مُتَسَاوِيَانِ فِي الطُّولِ دَائِمًا بِسَبَبِ وُقُوعِهَا عَلَى خَطِّ الِاسْتِوَاءِ ، وَأَنَّ فِيهَا جَبَلاً مِنْ أَعْلَى جِبَالِ الدُّنْيَا ، وَلَقَدْ كُنْتُ أَصْعَدُ إِلَى قِمَّتِهِ أَحْيَانًا لِأُمَتِّعَ نَفْسِي بِجَمَالِ الطَّبِيعَةِ الْفَاتِنِ كَمَا كُنْتُ أَذْهَبُ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ إِلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ فَأَرَى الْغَوَّاصِينَ يَسْتَخْرِجُونَ اللُّؤْلُؤَ ؟

١٣ ــ كِتَابُ الْمَلِكِ إِلَى الْخَلِيفَةِ

وَمَكَثْتُ فِى تِلْكَ ٱلْبِلاَدِ ٱلْجَمِيلَةِ عِدَّةَ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱشْتَاقَتْ نَفْسِى إِلى رُؤْيَةِ وَطَنِى وَٱلْعَوْدَةِ إِلى بِلاَدِى ، فَٱسْتَأْذَنْتُ ٱلْمَلِكَ فِى السَّفَرِ فَتَفَضَّلَ عَلَىَّ بِٱلْإِذْنِ فِى ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ أَمَرَ لِى بِكَثِيرٍ مِنَ ٱلْهَدَايَا ٱلْغَالِيَةِ . وَلَمَّا جَاءَ يَوْمُ السَّفَرِ وَدَّعَنِى وَحَمَّلَنِى كِتَاباً رَقِيقاً إِلى ٱلْخَلِيفَةِ « هَارُونَ ٱلرَّشِيدِ » وَهَدَايَا نَفِيسَةً لاَ تُقَوَّمُ بِثَمَنٍ .

١٤ ــ ٱلْعَوْدَةُ إِلى بَغْدَادَ

ثُمَّ أَبْحَرَتْ بِىَ ٱلسَّفِينَةُ إِلَى بِلاَدِى ، وَلَمْ تَزَلْ سَائِرَةً أَيَّاماً وَلَيَالِىَ حَتَّى وَصَلَتْ إِلى « ٱلْبَصْرَةِ » حَيْثُ سَافَرْتُ إِلَى « بَغْدَادَ » فَقَابَلَنِى أَهْلِى وَأَصْحَابِى أَحْسَنَ مُقَابَلَةٍ ، وَتَصَدَّقْتُ عَلَى ٱلْفُقَرَاءِ وَٱلْمَسَاكِينِ ، وَأَجْزَلْتُ لَهُمُ ٱلْعَطَاءَ وَعَزَمْتُ عَلَى تَرْكِ ٱلسَّفَرِ وَٱلْبَقَاءِ فِى « بَغْدَادَ » طُولَ عُمْرِى حَتَّى لاَ أُعَرِّضَ نَفْسِى لِلْأَخْطَارِ وَٱلْمَخَاوِفِ بَعْدَ مَا نَجَوْتُ مِنْهَا .

١٥ ــ فِى حَضْرَةِ ٱلْخَلِيفَةِ

ثُمَّ ذَهَبْتُ إِلى ٱلْخَلِيفَةِ « هَارُونَ ٱلرَّشِيدِ » فَمَثَلْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَقَصَصْتُ عَلَيْهِ قِصَّتِى وَقَدَّمْتُ لَهُ مَا أَرْسَلَهُ إِلَيْهِ مَلِكُ « سَرَنْدِيبَ » مِنَ ٱلْهَدَايَا النَّفِيسَةِ ، فَعَجِبَ مِنْ ذَلِكَ عَجَباً شَدِيداً .

وَقَرَأَ كِتَابَ ٱلْمَلِكِ فَرَآهُ يَفِيضُ بِالرِّقَّةِ وَٱلْمَوَدَّةِ وَٱلْإِخْلَاصِ، فَشَكَرَنِى عَلَى ذَلِكَ وَأَمَرَ لِى بِجَائِزَةٍ حَسَنَةٍ وَشَمَلَنِى بِعَطْفِهِ وَحُبِّهِ .

✡
✡ ✡

وَلَمَّا فَرَغَ « السِّنْدِبَادُ » مِنْ كَلَامِهِ أَمَرَ لِلْحَمَّالِ بِمِائَةِ دِينَارٍ فَأَخَذَهَا مِنْهُ شَاكِراً وَٱنْصَرَفَ مَعَ جَمِيعِ ٱلْحَاضِرِينَ .

وَلَمَّا حَضَرُوا فِى ٱلْيَوْمِ ٱلتَّالِى أَخَذَ « السِّنْدِبَادُ » يَقُصُّ عَلَيْهِمْ رِحْلَتَهُ السَّابِعَةَ فَقَالَ :

مع الأَفيَّال

١ — تَوْبَةُ ٱلسِّنْدِبَادِ عَنِ ٱلسفَرِ

عَزَمْتُ — بَعْدَ أَنْ عُدْتُ مِنْ رِحْلَتِى السَّادِسَةِ — عَلَى تَرْكِ الْأَسْفَارِ بَعْدَ مَا لَقِيتُهُ فِيهَا مِنَ ٱلمخَاوِفِ وَٱلْأَخْطَارِ ٱلَّتِى تَشِيبُ مِنْ هَوْلِهَا ٱلْوِلْدَانُ . وَعَاهَدْتُ نَفْسِى عَهْداً وَثِيقاً أَنْ أَقْضِىَ ٱلْبَقِيَّةَ ٱلْبَاقِيَةَ مِنْ عُمْرِى فِى رَاحَةٍ وَطُمَأْنِينَةٍ بَعْدَ أَنْ أَصْبَحْتُ شَيْخاً كَبِيرَ ٱلسِّنِ، وَكَرِهَتْ نَفْسِى ٱلْغُرْبَةَ وَٱلسَّفَرَ وَشَعَرْتُ بِمَيْلٍ شَدِيدٍ إِلَى ٱلرَّاحَةِ فَتُبْتُ عَنِ ٱلسَّفَرِ تَوْبَةً صَادِقَةً وَصَحَّ عَزْمِى عَلَى ٱلْبَقَاءِ فِى « بَغْدَادَ » نَاعِماً هَادِئَ ٱلْبَالِ لَا يُعَكِّرُ صَفْوِى أَىُّ كَدَرٍ .

٢ — نقْضُ ٱلتَّوْبَةِ

تَمَنَّيْتُ أَنْ تَنْصَرِفَ عَنِّى دَوَاعِى السَّفَرِ وَٱلْاغْتِرَابِ ، وَلَكِنْ مَا كُلُّ مَا يَتَمَنَّى ٱلْمَرْءُ يُدْرِكُهُ ، فَقَدْ عَرَضَ لِى مَا لَمْ يَكُنْ فِى ٱلْحُسْبَانِ إِذْ جَاءَنِى رَسُولٌ مِنْ قِبَلِ ٱلْخَلِيفَةِ « هَارُونَ ٱلرَّشِيدِ » يَسْتَدْعِينِى إِلَى مُقَابَلَتِهِ — وَكُنْتُ فِى ذَلِكَ ٱلْيَوْمِ جَالِساً بَيْنَ أَصْدِقَائِى مُطْمَئِنَّ ٱلْبَالِ — فَلَمْ أَتَرَدَّدْ فِى تَلْبِيَةِ ٱلْأَمْرِ .

٣ — فِى حَضْرَةِ ٱلْخَلِيفَةِ

وَلَمَّا مَثَلْتُ بَيْنَ يَدَىِ ٱلْخَلِيفَةِ حَيَّيْتُهُ فَرَحَّبَ بِقُدُومِى ثُمَّ

قَالَ لِى — : « لَقَدِ ٱخْتَرْتُكَ يَا سِنْدِبَادُ — دُونَ سِوَاكَ مِنَ النَّاسِ — لِتَذْهَبَ إِلَى مَلِكِ « سَرَنْدِيبَ » وَتَحْمِلَ إِلَيْهِ هَذِهِ ٱلْهَدِيَّةَ وَتُبَلِّغَهُ سَلَامِى وَتَحِيَّاتِى » فَوَقَعَ عَلَىَّ هَذَا ٱلْخَبَرُ وُقُوعَ الصَّاعِقَةِ ، وَقُلْتُ لَهُ :

« أَنَا عَبْدُكَ ٱلْخَاضِعُ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ، وَلَيْسَ فِى قُدْرَتِى أَنْ أَعْصِىَ لَكَ أَمْرًا ، وَلَكِنَّنِى أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ أَنْ تُعْفِيَنِى مِنَ ٱلْقِيَامِ فِى هَذَا ٱلْأَمْرِ ، فَقَدْ تُبْتُ عَنِ السَّفَرِ تَوْبَةً صَادِقَةً وَأَقْسَمْتُ أَلَّا أُفَارِقَ بَلَدِى ، وَقَدْ أَصْبَحْتُ ٱلْآنَ شَيْخًا كَبِيرَ السِّنِّ لَا قُدْرَةَ لِى عَلَى السَّفَرِ وَمَتَاعِبِهِ ! »

ثُمَّ قَصَصْتُ عَلَيْهِ كُلَّ مَا حَدَثَ لِى فِى أَسْفَارِى السَّابِقَةِ مِنَ الْأَخْطَارِ وَالْمَخَاوِفِ فَعَجِبَ مِنْ ذَلِكَ أَشَدَّ الْعَجَبِ وَقَالَ لِى : « حَقًّا إِنَّ قِصَّتَكَ هَذِهِ مِنْ أَعْجَبِ مَا سَمِعْتُ وَلَكِنَّ ذَلِكَ لَا يَمْنَعُنِى أَنْ أَعْهَدَ إِلَيْكَ بِمَا أَرَدْتُ ، وَلَسْتُ أُكَلِّفُكَ شَيْئاً أَكْثَرَ مِنْ أَنْ تَذْهَبَ إِلَى مَلِكِ « سَرَنْدِيبَ » وَتَحْمِلَ إِلَيْهِ هَدِيَّتِى وَتَحِيَّتِى ثُمَّ تَعُودَ إِلَيْنَا سَالِماً آمِناً ، فَلَيْسَ مِنَ الْمُرُوءَةِ أَنْ يَبْدَأَنِى بِالْوُدِّ وَالْإِخْلَاص فَلَا أُجِيبُهُ بِمَا هُوَ أَهْلٌ لَهُ مِنَ الشُّكْر وَالثَّنَاءِ ؟ »

٤ — السَّفَرُ إِلَى جَزِيرَةِ سَرَنْدِيبَ

فَلَمْ أَسْتَطِعْ مُخَالَفَةَ أَمْرِهِ ، وَأَجَبْتُهُ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فَفَرِحَ فَرَحًا شَدِيداً وَمَنَحَنِى أَلْفَ دِينَارٍ — مُكَافَأَةً لِى عَلَى ذَلِكَ — ثُمَّ أَمَرَ لِى بِمَالٍ كَثِيرٍ — فَوْقَ مَا أَعْطَانِى — لِأُنْفِقَ مِنْهُ عَلَى هَذِهِ الرِّحْلَةِ .

فَسَافَرْتُ بِهَدِيَّتِهِ وَكِتَابِهِ إِلَى جَزِيرَةِ « سَرَنْدِيبَ » وَطَابَتْ لَنَا الرِّيحُ أَيَّاماً وَلَيَالِىَ حَتَّى وَصَلْنَا إِلَيْهَا سَالِمِينَ .

٥ — فِى حَضْرَةِ مَلِكِ سَرَنْدِيبَ

وَلَمْ أَكَدْ أَذْهَبُ إِلَى مَلِكِ « سَرَنْدِيبَ » حَتَّى أَقْبَلَ عَلَىَّ وَفَرِحَ بِقُدُومِى فَرَحًا شَدِيداً وَقَالَ لِى — : « لَقَدْ كُنْتُ فِى شَوْقٍ

شَدِيدٍ إِلَيْكَ يَا سِنْدِبَادُ ، وَكُنْتُ كَثِيراً مَا أُثْنِي عَلَيْكَ وَأُعجَبُ بِصِدْقِ عَزِيمَتِكَ . »

فَشَكَرْتُ لَهُ ذَلِكَ ، وَقَدَّمْتُ إِلَيْهِ كِتَابَ اُلْخَلِيفَةِ وَهَدِيَّتَهُ فَسُرَّ بِهِمَا سُرُوراً عَظِيماً ، وَمَكَثْتُ فِي ضِيَافَتِهِ أَيَّاماً كَثِيرَةً ثُمَّ اسْتَأْذَنْتُهُ فِي الْعَوْدَةِ إِلَى بَلَدِي فَأَسِفَ عَلَى ذَلِكَ أَشَدَّ اُلْأَسَفِ ، وَلَمْ يَأْذَنْ لِي فِي السَّفَرِ إِلَّا بَعْدَ جَهْدٍ عَظِيمٍ لِشِدَّةِ تَعَلُّقِهِ بِي ، وَأَهْدَانِي شَيْئاً كَثِيراً مِنَ النَّفَائِسِ وَالتُّحَفِ فَقَبِلْتُهَا شَاكِراً ، ثُمَّ وَدَّعْتُهُ وَأَنَا آسِفٌ عَلَى فِرَاقِهِ .

٦ – لُصُوصُ اُلْبَحْرِ

وَرَأَيْتُ إِحْدَى السُّفُنِ ذَاهِبَةً إِلَى « اُلْبَصْرَةِ » فَنَزَلْتُ إِلَيْهَا وَسَارَتْ بِنَا فِي الْبَحْرِ وَكَانَتِ الرِّيحُ طَيِّبَةً وَاُلْأُمُورُ عَلَى مَا يُرَامُ فَبَقِينَا أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ نَلْهُو وَنَلْعَبُ وَنُغَنِّي فَرِحِينَ بِقُرْبِ الْعَوْدَةِ إِلَى اُلْوَطَنِ ، وَفِي الْيَوْمِ اُلْخَامِسِ فَاجَأَنَا لُصُوصُ الْبَحْرِ

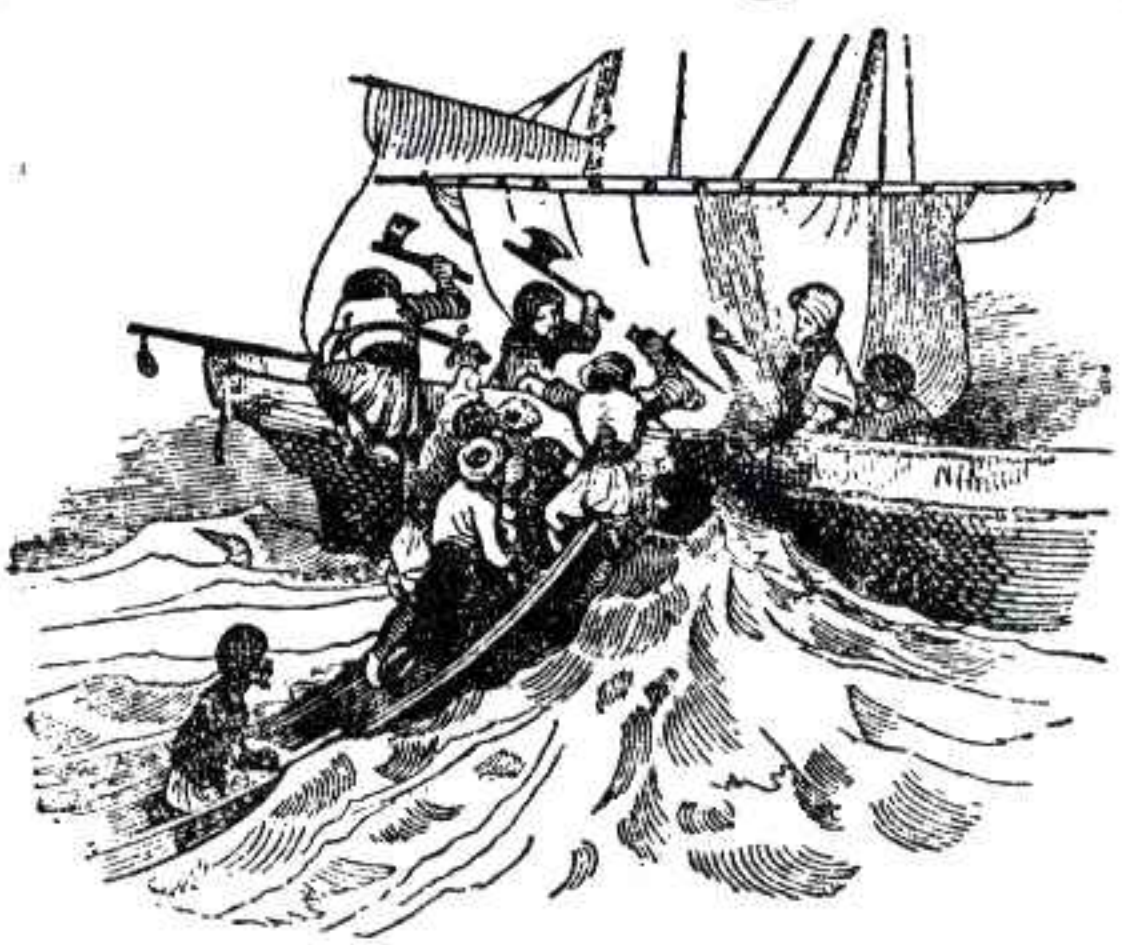

فَقَتَلُوا كُلَّ مَنْ قَاوَمَهُمْ شَرَّ قِتْلَةٍ وَسَلَبُوا مَا مَعَنَا مِنْ ثَرْوَةٍ وَمَتَاعٍ

وَأَسَرُوا مَنْ بَقِيَ مِنَّا وَوَقَعْتُ فِى قَبْضَتِهِمْ أسِيراً ، ثُمَّ ذهَبُوا بِمَرْكَبِنَا إِلى جَزِيرَةٍ بَعِيدَةٍ فَبَاعُونَا فِيهَا بَيْعَ الْعَبِيدِ ، فَاشْتَرَانِى تَاجِرٌ غَنِىٌّ وَأَطْعَمَنِى وَكَسَانِى وَآوَانِى عِنْدَهُ ، ثُمَّ سَأَلَنِى بَعْدَ أيَّامٍ قَلَائِلَ عَمَّا أُحْسِنُهُ مِنَ الْعَمَلِ فَقُلْتُ لَهُ — : « أَنَا تَاجِرٌ غَنِىٌّ لاَ أُحْسِنُ عَمَلًا غَيْرَ التِّجَارَةِ وَقَدْ وَقَعْتُ فِى قَبْضَةِ لُصُوصِ الْبَحْرِ أَسِيراً . »

فَقَالَ لِى : « أَلَمْ تَتَعَلَّمِ الصَّيْدَ ؟ » فَأَجَبْتُهُ :

« لَقَدْ تَعَلَّمْتُهُ فِى صِبَاىَ ، وَفِى قُدرَتِى أَنْ أُحْسِنَهُ بَعْدَ قَلِيلٍ مِنَ الْمرَانَةِ . »

٧ — صَيْدُ الْفِيلِ

فَأَعْطَانِى قَوْساً وَنِبَالاً وَأَرْكَبَنِى مَعَهُ فِيلًا ، ثُمَّ ذَهَبَ بِى إِلَى غَابَةٍ بَعِيدَةٍ وَقَالَ لِى : « إِنَّ هَذِهِ الْغَابَةَ مَمْلُوءَةٌ بِالْفِيَلَةِ ، وَكُلُّ مَا أَطْلُبُهُ مِنْكَ أَنْ تَخْتَبِىءَ فِى بَعْضِ الْأَشْجَارِ الْعَالِيَةِ وَمَعَكَ قَوْسُكَ وَنِبَالُكَ فَإِذَا اصْطَدْتَ فِيلًا عُدْتَ إِلَىَّ لِتُخْبِرَنِى بِذَلِكَ . »

ثُمَّ رَجَعَ مِنْ حَيْثُ أَتَى وَتَرَكَنِى وَحْدِى ، فَصَعِدْتُ إِلَى شَجَرَةٍ عَالِيَةٍ وَبَقِيتُ عَلَيْهَا طُولَ اللَّيْلِ فَلَمْ أَرَ شَيْئاً ، وَلَمَّا أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ رَأَيْتُ قَطِيعاً مِنَ الْفِيَلَةِ يَقْتَرِبُ فَأَطْلَقْتُ سِهَامِى عَلَى أَحَدِهَا فَقَتَلَتْهُ وَهَرَبَ بَاقِى الْفِيَلَةِ ، فَذَهَبْتُ إِلَى سَيِّدِى وَأَخْبَرْتُهُ بِمَا فَعَلْتُ فَسُرَّ بِذَلِكَ وَشَكَرَنِى شُكْراً جَزِيلًا وَعَادَ مَعِى إِلَى

ٱلْغَابَةِ فَحَفَرْنَا حُفْرَةً كَبِيرَةً وَارَيْنَا فِيهَا جُثَّةَ ٱلْفِيلِ حَتَّى إِذَا مَضَى عَلَيْهِ زَمَنٌ طَوِيلٌ عَادَ إِلَيْهِ فَأَخَذَ عِظَامَهُ لِيَبِيعَهَا بِأَغْلَى ثَمَنٍ .

٨ – مَعَ ٱلْأَفْيَالِ

وَمَا زِلْتُ أُصْطَادُ فِى كُلِّ يَوْمٍ فِيلًا وَأَدْفِنُهُ حَتَّى مَضَى عَلَىَّ شَهْرَانِ ، وَكُنْتُ أَتَنَقَّلُ مِنْ شَجَرَةٍ إِلَى أُخْرَى حَتَّى لَا تَفْطَنَ ٱلْفِيَلَةُ إِلَى مَكَانِى ، وَفِى ذَاتِ يَوْمٍ رَأَيْتُ قَطِيعاً مِنْهَا مُسْرِعاً إِلَى

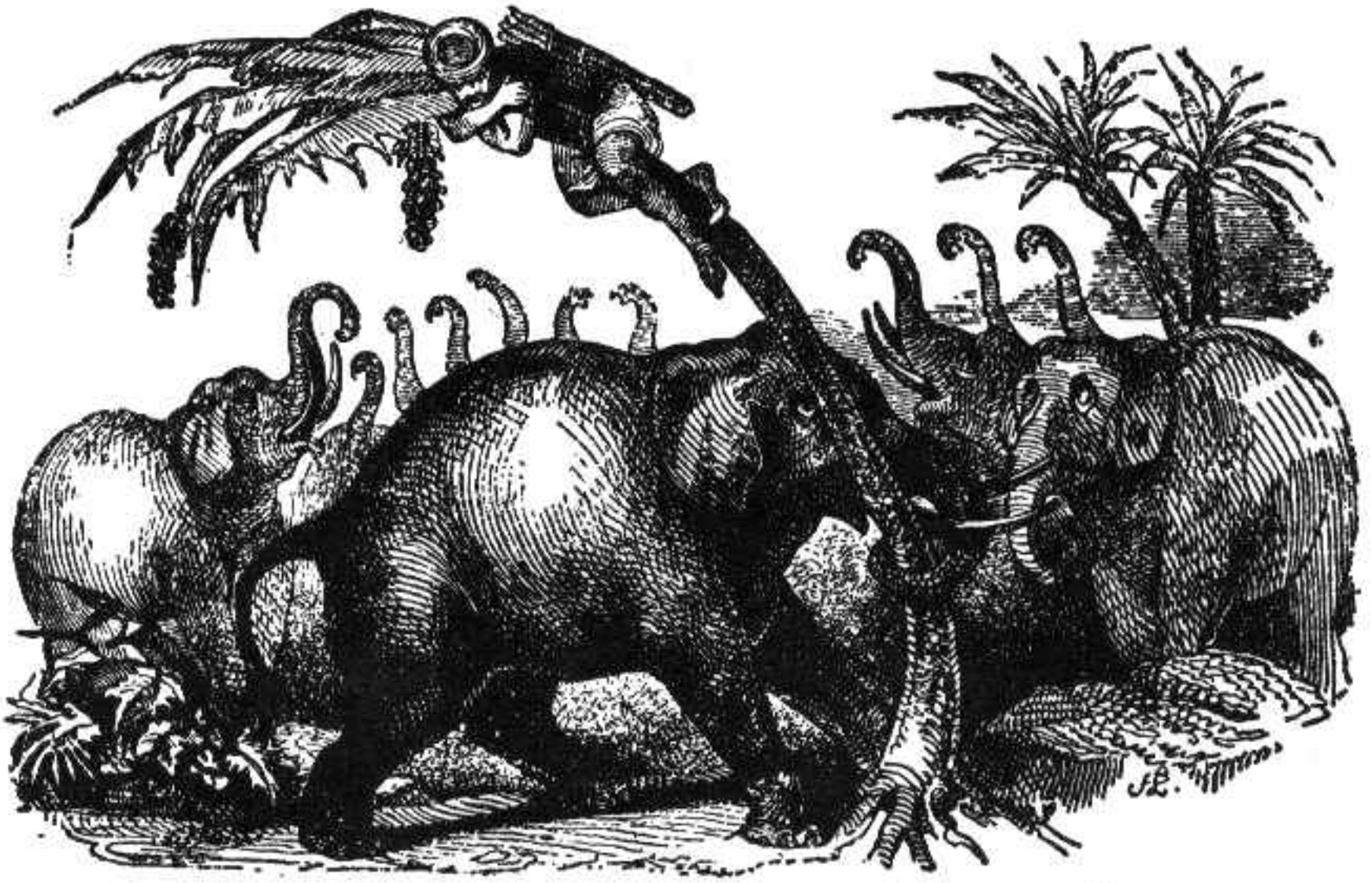

ٱلشَّجَرَةِ ٱلَّتِى كُنْتُ فَوْقَهَا . فَتَوَقَّعْتُ الشَّرَّ . وَبَعْدَ قَلِيلٍ جَاءَتِ ٱلْأَفْيَالُ فَأَحَاطَتْ بِالشَّجَرَةِ وَجَعَلَتْ تُحَرِّكُ خَرَاطِيمَهَا بِعُنْفٍ وَشِدَّةٍ . – وَهِىَ تَنْظُرُ إِلَىَّ وَتُحَدِّقُ فِىَّ – فَامْتَلَأَ قَلْبِى رُعْباً وَسَقَطَ ٱلْقَوْسُ وَٱلنِّبَالُ مِنْ يَدِى . وَجَاءَ فِيلٌ كَبِيرٌ فَلَفَّ خُرْطُومَهُ عَلَى جِذْعِ

ٱلشَّجَرَةِ ٱلَّتِي كُنْتُ فَوْقَهَا . وَجَذَبَهَا إِلَيْهِ جَذْبَةً قَوِيَّةً . فَاقْتَلَعَهَا مِنْ جذُورِهَا وَهَوَيْتُ إِلَى ٱلْأَرْضِ .

*
* *

وَٱقْتَرَبَ ٱلْفِيلُ مِنِّى فَرَفَعَنِي بِخُرْطُومِهِ وَأَجْلَسَنِي عَلَى ظَهْرِهِ

وَأَنَا بَيْنَ ٱلْحَيَاةِ وَٱلْمَوْتِ مِنْ شِدَّةِ مَا لَحِقَنِي مِنَ ٱلْخَوْفِ . ثُمَّ سَارَ بِى وَمِنْ خَلْفِهِ ٱلْأَفْيَالُ ٱلْأُخْرَى إِلَى مَكَانٍ قَرِيبٍ حَيْثُ وَقَفَ وَأَنْزَلَنِي إِلَى ٱلْأَرْضِ وَعَادَتِ ٱلْفِيلَةُ دُونَ أَنْ تَمَسَّنِي بِأَذًى ، فَخُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّنِي حَالِمٌ ، وَكِدْتُ لَا أُصَدِّقُ مَا أَرَاهُ

٩ — مَقْبَرَةُ ٱلْفِيَلَةِ

وَنَظَرْتُ فِيمَا حَوْلِى فَرَأَيْتُ كَوْمَةً مِنْ عِظَامِ ٱلْأَفْيَالِ وأَنْيَابِهَا فَأَدْرَكْتُ أَنَّهَا لَمْ تُحْضِرْنِى إِلَى هَذَا ٱلْمَكَانِ إِلَّا لِأَكُفَّ عَنْ قَتْلِهَا. وَكَأَنَّهَا عَلِمَتْ أَنِّى لَا أَقْتُلُهَا إِلَّا بُغْيَةَ ٱلْحُصُولِ عَلَى ٱلْعَاجِ فَجَاءَتْ بِى إِلَى هَذِهِ ٱلْمَقْبَرَةِ لِأَحْمِلَ مِنْهُ مَا أَسْتَطِيعُ حَمْلَهُ

وَعُدْتُ مُسْرِعاً إِلَى سَيِّدِى فَلَمْ يَكَدْ يَرَانِى حَتَّى أَقْبَلَ عَلَىَّ يُهَنِّئُنِى بِالسَّلَامَةِ وَقَالَ : « لَقَدْ مَرَرْتُ بِالْغَابَةِ ٱلْيَوْمَ فَرَأَيْتُ قَوْسَكَ وَنِبَالَكَ مُلْقَاةً عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَى جَانِبِ شَجَرَةٍ مُقْتَلَعَةٍ مِنْ جُذُورِهَا فَأَيْقَنْتُ أَنَّ ٱلْأَفْيَالَ قَتَلَتْكَ كَمَا قَتَلَتْ غَيْرَكَ مِنْ عَبِيدِنَا مِنْ قَبْلُ. فَكَيْفَ نَجَوْتَ ؟ » فَقَصَصْتُ عَلَيْهِ مَا حَدَثَ لِى فَعَجِبَ وَسَارَ مَعِى حَتَّى رَأَى صِدْقَ مَا قُلْتُهُ .

١٠ — خَلَاصُ ٱلسِّنْدِبَادِ مِنَ ٱلْأَسْر

فَفَرِحَ بِذَلِكَ فَرَحاً شَدِيداً وَشَكَرَنِى عَلَى ذَكَائِى كُلَّ ٱلشُّكْرِ ، وَقَالَ لِى : « لَقَدْ هَدَيْتَنِى إِلَى طَرِيقِ ثَرْوَةٍ طَائِلَةٍ لَمْ أَكُنْ لِأَحْلُمَ بِهَا مِنْ قَبْلُ . وَقَدْ أَعْتَقْتُكَ وَجَعَلْتُكَ حُرًّا » . فَشَكَرْتُ لَهُ ذَلِكَ وَفَرِحْتُ بِخَلَاصِى مِنَ ٱلْأَسْرِ وَٱلْعُبُودِيَّةِ ، وَٱسْتَأْذَنْتُهُ فِى ٱلْعَوْدَةِ إِلَى وَطَنِى فَأَعْطَانِى مَالاً كَثِيراً وَهَدَايَا نَفِيسَةً . وَمِقْدَاراً وَافِراً مِنَ ٱلْعَاجِ بِعْتُهُ — فِيمَا بَعْدُ — بِأَغْلَى ثَمَنٍ .

١١ — اَلْعَوْدَةُ إِلَى اَلْوَطَنِ

ثُمَّ نَزَلْتُ إِلَى مَرْكَبٍ كَانَ مُسَافِراً إِلَى « الْبَصْرَةِ » فَسَارَ فِى الْبَحْرِ أَيَّاماً وَلَيَالِىَ حَتَّى وَصَلَ إِلَى بَلَدٍ كَبِيرٍ . فَأَسْرَعْتُ بِالنُّزُولِ وَأَنَا أَحْمَدُ اللهَ عَلَى سَلَامَتِى مِنَ الْبَحْرِ ، وَذَهَبْتُ مَعَ قَافِلَةٍ كَانَتْ سَائِرَةً إِلَى « بَغْدَادَ » وَمَا زِلْنَا سَائِرِينَ فِى الْبَرِّ أَيَّاماً وَلَيَالِىَ حَتَّى وَصَلْنَا إِلَيْهَا.

١٢ — فِى بَغْدَادَ

وَلَمْ أَكَدْ أَدْخُلُ « بَغْـدَادَ » حَتَّى قَابَلَنِى أَهْلِى وَأَصْحَابِى فَرِحِينَ بِعَوْدَتِى سَالِماً . وَلَمَّا ذَهَبْتُ إِلَى اَلْخَلِيفَةِ « هَارُونَ اَلرَّشِيدِ » قَابَلَنِى أَحْسَنَ مُقَابَلَةٍ وَفَرِحَ بِقُدُومِى أَشَدَّ الْفَرَحِ وَقَالَ لِى :

« لَقَدْ أَقْلَقَنِى غِيَابُكَ وَخَشِيتُ عَلَيْكَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَكَ سُوءٌ ، فَمَاذَا عَوَّقَكَ ؟ »

* * *

فَقَصَصْتُ عَلَيْهِ كُلَّ مَا حَدَثَ لِى فَعَجِبَ مِنْ ذَلِكَ أَشَدَّ الْعَجَبِ وَأَمَرَ أَنْ تُكْتَبَ قِصَّتِى بِمِدَادٍ مِنْ ذَهَبٍ لِتَكُونَ عِبْرَةً لِكُلِّ مَنْ قَرَأَهَا ، وَكَافَأَنِى أَجْزَلَ مُكَافَأَةٍ فَعُدْتُ مِنْ عِنْدِهِ شَاكِراً .

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَأَنَا فِى « بَغْدَادَ » أَنْعَمُ بَيْنَ أَهْلِى وَأَصْحَابِى بَعِيداً عَنِ اَلْأَسْفَارِ آمِناً مِنَ اَلْمَخَاوِفِ وَالْأَخْطَارِ .

١٣ – خَاتِمَةُ الْقِصَّةِ

وَلَمَّا أَنْتَهَى السِّنْدِبَادُ مِنْ كَلاَمِهِ ، اْلتَفَتَ إِلى اْلهِنْدِبَادِ الْحَمَّالِ وَقَالَ لَهُ : « وَالآنَ مَا رَأْيُكَ أَيُّهَا الصَّدِيقُ ؟ هَلْ سَمِعْتَ فِى حَيَاتِكَ أَغْرَبَ مِنْ هَـــذِهِ الْقِصَّةِ ؟ وَهَلْ تَعَرَّضَ أَحَدٌ لِمِثْلِ مَا تَعَرَّضْتُ لَهُ مِنَ اْلمَهَالِكِ وَاْلأَخْطَارِ ؟ أَلَيْسَ مِنْ حَقِّى — بَعْدَ كُلِّ مَا لَقِيتُهُ مِنَ اْلمَتَاعِبِ والأَهْوَالِ — أَنْ أَقْضِىَ البَقِيَّةَ اْلبَاقِيَةَ مِنْ عُمْرِى هَادِئًا مُطْمَئِنًّا ؟ »

* * *

فَقَامَ إِلَيْهِ « اْلهِنْدِبَادُ » اْلحَمَّالُ وَقَبَّلَ يَدَهُ — فى احْتِرَامٍ وأَدَبٍ — ثُمَّ قَالَ لَهُ :

« اَلْحَقُّ أَنَّنِى لَمْ أَسْمَعْ أَغْرَبَ مِنْ قِصَّتِكَ ، ولَسْتُ أَرَى أَحَداً أَجْدَرَ مِنْكَ بالسَّعَادَةِ لِأَنَّكَ أَدْرَكْتَهَا بِجِدِّكَ وَاجْتِهَادِكَ ، وَلَيْسَتْ مَتَاعِبِي الَّتِى أَحْتَمِلُهَا كُلَّ يَوْمٍ شَيْئاً مَذْكُوراً إِذَا قِيسَتْ إِلَى رِحْلَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ رِحْلاَتِكَ اْلعَجِيبَةِ ! وَلَقَدْ صَدَقَ اْلقَائِلُ :

« مَنْ لَمْ يَرْكَبِ الأَهْوَالَ لَمْ يَنَلِ الرَّغَائِبَ »

وَقَدْ حَلاَّكَ اللهُ بِصِفَاتٍ نَادِرَةٍ ، فَأَنْتَ — فَضْلاً عَنْ شَجَاعَتِكَ وَجُرْأَتِكَ — مُحْسِنٌ بَارٌّ بِالْفُقَرَاءِ واْلمَسَاكِينِ ، وَلَيْسَ لِى مَا أُكَافِئُكَ

بِهِ — بَعْدَ ٱلثَّنَاءِ عَلَيْكَ — إِلَّا ٱلدُّعَاءَ لَكَ ، بَارَكَ ٱللهُ فِيكَ وَأَطَالَ عُمْرَكَ وَمَتَّعَكَ بِثَرْوَتِكَ وَصِحَّتَكَ » .

* * *

فَهَشَّ لَهُ « السِّنْدِبَادُ » وقَرَّبَهُ إِلَيْهِ ومَنَحَهُ مِائَةَ دِينَار أُخْرَى ، وطَلَبَ إِلَيْهِ أَنْ يَأْكُلَ مَعَهُ كُلَّ يَوْم .

واتخَذَهُ « السِّنْدِبَادُ » صَاحِباً لَهُ فَأَغْنَاهُ بَعْدَ فَقْرِهِ ، وأَصْبَحَ « ٱلْهِنْدِبَادُ » — مِنْ ذَلِكَ ٱلْيَوْمِ — مِنْ خِيرَةِ أَصْفِيَاءِ « السِّنْدِبَادِ » وَنُدَمَائِهِ .

انْتَهَتِ القِصَّةُ ٱلْأُولَى

فهرست

		ص
	الإهداء	(٢)
	المقدمة	(٣)
١	الهندباد الحمال	(٥)
٢	صاحب القصر	(٥)
٣	شكوى الهندباد الحمال	(٦)
٤	فى حضرة السندباد	(٧)
٥	أسئلة	(٩)

الرحلة الأولى

على ظهر حوت

		ص
١	السندباد بعد وفاة أبيه	(١٠)
٢	دوار البحر	(١١)
٣	على ظهر حوت	(١١)
٤	حقيقة الجزيرة	(١٢)
٥	كيف نجوت من الغرق	(١٢)
٦	خدم المهراجا	(١٤)
٧	حصان البحر	(١٥)
٨	فى حضرة المهراجا	(١٦)
٩	على شاطئ البحر	(١٦)
١٠	عجائب الهند	(١٦)
١١	اللقاء بعد اليأس	(١٧)
١٢	العودة إلى الوطن	(١٨)
١٣	فى بغداد	(١٩)
١٤	دهشة الحاضرين	(١٩)

الرحلة الثانية

فى وادى الأفاعى

		ص
١	كيف نسينى رفاقى	(٢١)
٢	بيضة الرخ	(٢٣)
٣	طير الرخ	(٢٣)
٤	فى وادى الأفاعى	(٢٤)
٥	حجارة الماس	(٢٥)
٦	فى الكهف	(٢٦)
٧	فى صباح اليوم التالى	(٢٦)
٨	كيف يحصل التجار على الماس	(٢٧)
٩	كيف نجا السندباد من وادى الأفاعى	(٢٨)
١٠	العودة إلى بغداد	(٢٩)

الرحلة الثالثة

فى بلاد الأقزام والعمالقة

		ص
١	هبوب العاصفة	(٣٠)
٢	مع الأقزام	(٣١)
٣	قصر العملاق	(٣١)
٤	فى حضرة العملاق	(٣٢)
٥	كيف شوى الربان	(٣٢)
٦	فى اليوم التالى	(٣٣)
٧	فلك النجاة	(٣٤)
٨	تنفيذ المؤامرة	(٣٤)
٩	انتقام العمالقة	(٣٥)
١٠	الفرار من جزيرة العمالقة	(٣٥)
١١	فى فم أفعى	(٣٦)
١٢	كيف نجا السندباد من الأفعى	(٣٦)
١٣	الأمل بعد اليأس	(٣٧)
١٤	ربان السفينة	(٣٨)
١٥	فى بغداد	(٣٨)

الرحلة الرابعة

بين جماجم الموتى

		ص
١	كيف تحطم المركب	(٣٩)
٢	جزيرة الغيلان	(٤١)
٣	هرب السندباد من الغيلان	(٤٢)
٤	على شاطئ البحر	(٤٣)
٥	فى حضرة الملك	(٤٣)
٦	سروج الخيل	(٤٣)
٧	زواج السندباد	(٤٤)
٨	دفن الأحياء مع الأموات	(٤٥)
٩	الشكوى إلى الملك	(٤٦)
١٠	وفاة زوجة السندباد	(٤٧)
١١	بين جماجم الموتى	(٤٨)
١٢	النجاة من الجب	(٥٠)
١٣	مركب النجاة	(٥١)
١٤	العودة إلى الوطن	(٥٢)

الرحلة الخامسة

« ١ » شيخ البحر « ٢ » مدينة القرود

		ص
١	جزيرة الرخ	(٥٣)
٢	فرخ الرخ	(٥٤)
٣	طائرا الرخ	(٥٤)
٤	انتقام الرخ	(٥٥)
٥	تحطيم المركب	(٥٥)
٦	جزيرة شيخ البحر	(٥٦)
٧	شيخ البحر	(٥٦)
٨	الانتقام من شيخ البحر	(٥٨)
٩	فى انتظار الفرج	(٥٩)
١٠	مدينة القرود	(٥٩)
١١	غواصو اللؤلؤ	(٦٠)
١٢	العودة إلى الوطن	(٦١)

الرحلة السادسة

فى جزيرة الهلاك

		ص
١	بعد عام	(٦٢)
٢	هبوب العاصفة	(٦٢)
٣	فى جزيرة الهلاك	(٦٤)
٤	بعد فراغ الزاد	(٦٥)
٥	الأمل بعد اليأس	(٦٦)
٦	زورق النجاة	(٦٦)
٧	فى ظلمة الكهف	(٦٧)
٨	الخلاص من جزيرة الهلاك	(٦٧)
٩	فى جزيرة سرنديب	(٦٨)
١٠	فى حضرة ملك سرنديب	(٦٩)
١١	فى ضيافة ملك سرنديب	(٧٠)
١٢	عجائب سرنديب	(٧١)
١٣	كتاب الملك إلى الخليفة	(٧٢)
١٤	العودة إلى بغداد	(٧٢)
١٥	فى حضرة الخليفة	(٧٢)

الرحلة السابعة

مع الأفيال

		ص
١	توبة السندباد عن السفر	(٧٤)
٢	نقض التوبة	(٧٤)
٣	فى حضرة الخليفة	(٧٥)
٤	السفر إلى جزيرة سرنديب	(٧٦)
٥	فى حضرة ملك سرنديب	(٧٦)
٦	لصوص البحر	(٧٧)
٧	صيد الفيل	(٧٨)
٨	مع الأفيال	(٧٩)
٩	مقبرة الفيلة	(٨١)
١٠	خلاص السندباد من الأسر	(٨١)
١١	العودة إلى الوطن	(٨٢)
١٢	فى بغداد	(٨٢)
١٣	خاتمة	(٨٣)

مكتبة الكيلانى للأطفال

... وهٰكذا نَجَحْتَ — يا أُستاذُ — فى أن تُحَبِّبَ إلى الأطفالِ مكتبتَهُم وتُغْرِيَهُم بالمُطالعَةِ[1] . ولئِنْ أَدْرَكَ الأطفالُ — بِرياضِ الأطفالِ — مُراداً بعيداً ، لقد فَتَحْتَ لَهُمْ — بِمَكْتبَةِ الأطْفالِ — فتْحًا جَديداً . أدركتَ أَرَبَ نُفوسِهم ، وأَبدلتَهم أُنْسًا من عُبوسِهم ، وهِجْتَ لِلمعالى أَشْواقَهم ، وحسَّنْتَ لُغَتَهُم وأَخلاقَهُم[2] . والأستاذ الكِيلانىّ مُنشِئُ مَكتبَةِ الأطفالِ أديبٌ عالَمِيٌّ جَديرٌ بما يَهْدِفُ إلَيْهِ مِنْ نَبيلِ الأغراضِ[3] . وإنه ليَسُرُّنى — إذْ أُتابعُ مع التَّقديرِ هٰذا الجُهْدَ العِلْمِيَّ المتواصلَ — أن أُلاحِظَ مِقدارَ العِنايةِ التى تَبْذُلونَها فى هٰذا السَّبيلِ ، والفائِدَةَ التى تعودُ على النَّشْءِ مِنْهُ ، بِتَهْيِئَةِ أذْهانِ الأطفالِ وعُقُولِهِمْ لِتَقَبُّلِ خيرِ الأفكارِ والمَعانى ، وتقديمِها لَهُمْ على مِثْلِ هٰذهِ الصُّورةِ الطَّريفةِ[4] . فاللهُ يكافِئُك عَلَى ما قَدَّمْتَهُ لِلْعَرَبيَّةِ مِنْ رَوائِعِ أدبٍ ، تُضِيفُ إلى كُنُوزِها كُنُوزًا[5] . وإنِّى وقد تَتَبَّعْتُ هٰذا المَجْهودَ القَيِّمَ المُتَّصِلَ لا يَسَعُنى إلّا الإعْجابُ بما تُساهِمُونَ به فى سَدِّ نَقْصٍ يَشْعُرُ بِهِ جميعُ الآباءِ فى تعليمِ أطفالِهِم[6] . فَشَكَرَ اللهُ لكَ ما هَدَفْتَ إليه مِنْ تَنْشِئَةِ الطِّفْلِ مَشْبوبَ الشَّغَفِ بالقِراءةِ والدَّرْسِ ، موْفورَ الْحَظِّ مِن مَتاعِ الفِكْرِ ، مُسْتقيمَ اللِّسانِ على نَهْجِ البيانِ[7] . فهى تَتمشّى مع طِباعِ الطِّفْلِ الشَّرْقِيِّ وغرائِزِه حَتَّى يترَعْرَعَ . وتَجْعَلُ الْحَلْقَةَ مُتَّصلةً بين المَدْرسةِ والبيتِ فى قِصَصٍ مُناسِبةٍ مُتماسكةٍ مع نفسِيَّةِ الطِّفْلِ وَعَقْلِيَّتِهِ وبِيئَتِه وما يَهْوَى سماعَهُ أو يَميلُ لِوَعْيِه ، بأُسْلوبٍ صحيحٍ فصيحٍ ، إذا حَفِظَهُ الصَّبِيُّ صَغيراً نَفَعَهُ كبيراً[8] . ومِن ثَمَّ يَشُبُّ الطِّفْلُ ، وقد صَحَّتْ مَلَكَتُه ، وأُشْرِبَتِ الفُصْحَى فِكرَتَه[9] .

---

(١) أحمد لطفى السيد (٢) أحمد نجيب الهلالى (٣) جعفر ولى
(٤) على ماهر (٥) محمد العشماوى (٦) محمد بهى الدين بركات
(٧) محمد توفيق رفعت (٨) محمد حلمى عيسى .. (٩) محمد على علوبة

رقم الإيداع	١٩٩١ / ٤٤٤٣
الترقيم الدولى	ISBN 977 - 02 - 3328 - 8

١١٦ / ٩١ / ١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

مكتبة الأطفال بقلم كامل كيلانى

قصص فكاهية

١ عمارة . ٢ الأرنب الذكى .
٣ عفاريت اللصوص . ٤ نعمان .
٥ العرندس . ٦ أبو الحسن .
٧ حذاء الطنبورى . ٨ بنت الصباغ .

قصص من ألف ليلة

١ بابا عبد الله والدرويش .
٢ أبو صير وأبو قير . ٣ على بابا .
٤ عبد الله البرى وعبد الله البحرى .
٥ الملك عجيب . ٦ خسروشاه .
٧ السندباد البحرى . ٨ علاء الدين .
٩ تاجر بغداد . ١٠ مدينة النحاس .

قصص هندية

١ الشيخ الهندى . ٢ الوزير السجين .
٣ الأميرة القاسية . ٤ خاتم الذكرى .
٥ شبكة الموت . ٦ فى غابة الشياطين .
٧ صراع الأخوين .

قصص شكسبير

١ العاصفة . ٢ تاجر البندقية .
٣ يوليوس قيصر . ٤ الملك لير .

أساطير العالم

١ الملك ميداس . ٢ فى بلاد العجائب .
٣ القصر الهندى . ٤ قصاص الأثر .
٥ بطل أتينا . ٦ الفيل الأبيض .

قصص علمية

١ أصدقاء الربيع . ٢ زهرة البرسيم .
٣ فى الاصطبل . ٤ حجارة الغابة .
٥ أسرة السناجيب . ٦ أم سند وأم هند .
٧ الصديقتان . ٨ أم مازن .
٩ العنكب الحزين . ١٠ النحلة العاملة .

أشهر القصص

١ جلفر فى بلاد الأقزام .
٢ » فى بلاد العمالقة .
٣ » فى الجزيرة الطيارة .
٤ » فى جزيرة الجياد الناطقة .
٥ روبنسن كروزو .

قصص عربية

١ حى بن يقظان . ٢ ابن جبير فى مصر والحجاز .

قصص تمثيلية

١ الملك النجار .

٢٠٩٦١٥